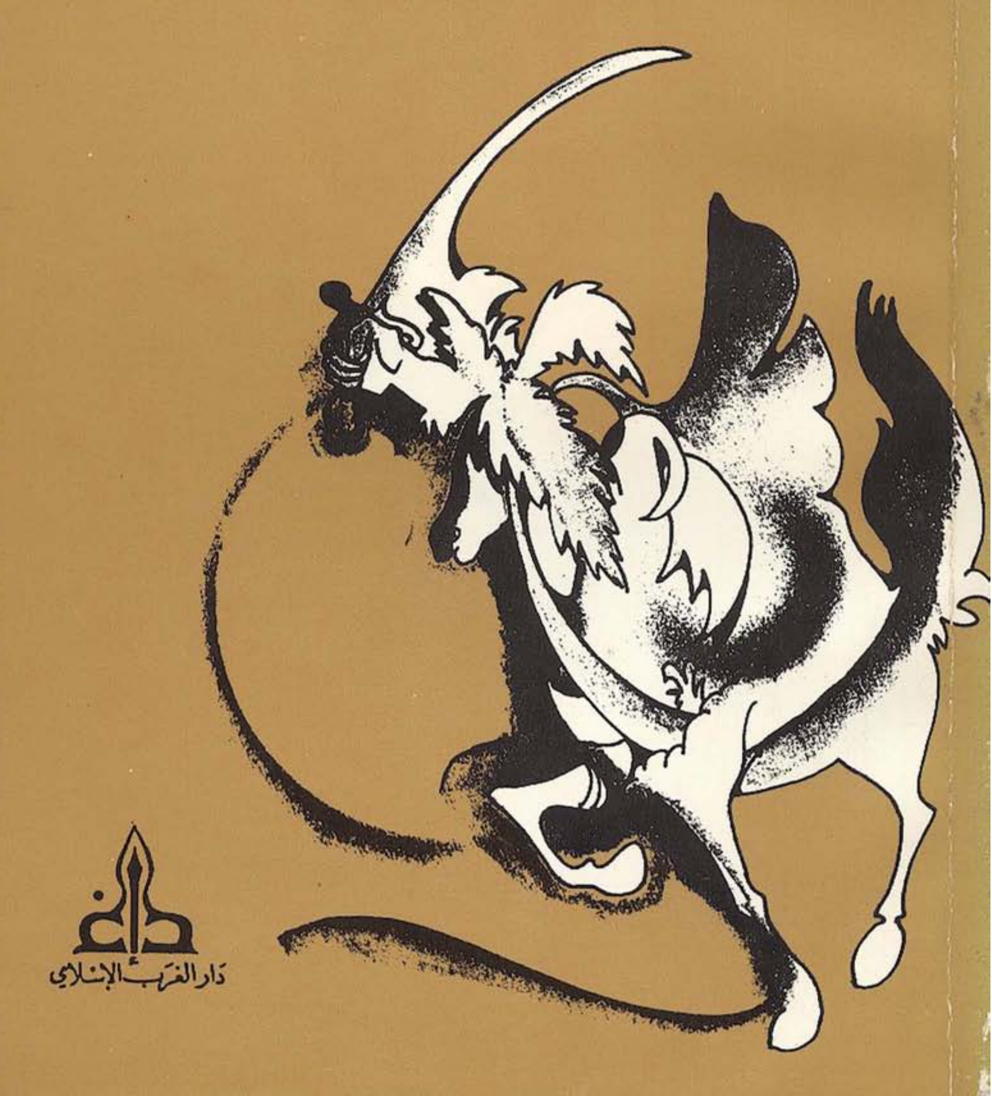
دكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

أضواء جديدة على المرابطين



دار الغرب الإسلامي

أضواء جديدة على المرابطين

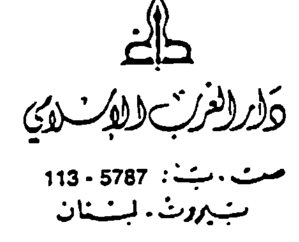
أضواء جديدة على المرابطين

دكتورة عصمت عبد اللطيف دندش
أستاذة التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة محمد الخامس



الطبعة الأولى

1991



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الذِّي هَدَانَا لِهَذا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلاَ أن هَدَانَا اللَّهُ ﴾.

[سورة الأعراف: 43]

إهــداء

إليكمـــا :-

مهجــة النفـس

وفلـــذة الكبــد

يحيـى والشيــماء

وإليـك أنــت

رفيـق العمـر

محمد بنشريفـة

كان عصر المرابطين من أكثر فترات التاريخ غموضاً في الغرب الإسلامي، نظراً لضياع جل المصادر التي تؤرخ لها، ولموقف الموحدين منهم، ولكن من حين لآخر نعثر بين السطور أو من خلال بعض الإشارات القليلة في التراجم والنوازل في المصادر الموجودة بين أيدينا ما يعين على حل رموز هذه المرحلة، فتقودنا إلى معلومات قيمة، فتنكشف لنا أحداث كانت تبدو غامضة ومحيرة إلى عهد قريب، مما تجعلنا نعيد النظر في أحكام سابقة.

ومن خلال هذه البحوث نتعرف على الجديد من المعلومات التي تهم الباحثين في تاريخ المرابطين.

المهدي بن تومرت والباطنية(*)

لا شك أن شخصية المهدي بن تومرت وحركته قد أثارت العديد من التساؤلات، وأغرت الكثير من الباحثين لدراسة عقيدته، والكشف عن دعوته، والهدف منها. وأنا لن أناقش هذه العقيدة أو مدى علم وتفقه ابن تومرت، فهذا ليس مجالي الآن، كما أنه ظهرت عدة دراسات في هذا الموضوع، وأضيف إلى هذا أنني لن أكون أول من لاحظ تأثر ابن تومرت بأقوال الشيعة وأفعالهم، ولكن السؤال المطروح هل كانت لابن تومرت علاقة بالباطنية النزارية أو ما عرف «بالحشاشين»؟ وهل أعد أثناء دراسته بالمشرق ليكون داعياً لهذه الفرقة بالمغرب ثم حول الدعوة لنفسه؟.

لقد خرج ابن تومرت من بلاد المغرب على رأس المائة السادسة وجاز إلى الأندلس[1] التي كانت بالنسبة له نقطة انطلاق وليس مكان استقرار، ومن ألمرية أخذ السفينة المتجهة إلى

(*) بحث ألقي في جامعة القاضي عياض بمراكش في تكريم الأستاذ الشرقاوي إقبال، مايو سنة 1987.

(1) ابن القطان: نظم الجمان، ص 4.

المشرق الذي تغيب فيه حوالى العشر سنوات. وللأسف فإن المصادر لا توضح الأماكن التي نزلها، كما لا يعرف عن ابن تومرت أنه تحدث عن رحلته أو شيوخه كعادة طـلاب العلم باستثناء بعض المصادر الموحدية التي ذكرت بعض الأسماء التي يشك في أنه التقى بها أو أخذ عنها[2].

سأعود إلى الوراء إلى عام 340هـ/ 951م وهو العام الذي زار فيه ابن حوقل منطقة المصامدة والسوس ويعتبر أقدم مصدر بين أيدينا يبين أن المنطقة لم تخل من الصراع المذهبي حيث عرفت المذهب الشيعي الرافضي إلى جانب المذهب المالكي، فيقول «وأهل السوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنة، وموسويون شيعة، يقطعـون على موسى بن جعفـر من أصحاب علي بن ورصند، والغالب على الجميع الجفاء والغلظة في العشرة وقلة رقة الطبع، والمالكيون من فظاظ الحشوية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة»[3].

ويأتي بعده ابن حزم بحوالى قرن (ت 456هـ/ 1063م) ويشير إلى الشيعة الموجودين بالسوس قائـلاً: «ومنهم طائفـة تسمى

---

(2) ذكـر أنه أخـذ العلم عن الكياهـراسي، والـطرطـوشي، والغـزالي، والمبارك بن عبد الجبار، أبو بكر الشاشي، وأبو عبد الله الحضرمي.

انظر: المراكشي: المعجب، ص 295.

انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 5، رقم 688، ص 46.

انظر: ابن خلدون: العبر، جـ 6، ص 465.

انظر: د. عبد الرحمن النجار: المهدي بن تومرت ص 72 وما بعدها.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 91.

البجلية نسبوا إلى الحسن بن علي بن ورصند، كان من أهل نفطة من عمل قفصة وقسطيلية من كور إفريقية، ثم نهض هذا الكافر إلى السوس من أقاصي بلاد المصامدة فأضلهم وأضل أمير السوس أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهم هناك كثير سكان في ربض مدينة السوس معلنون بكفرهم، وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين[4]:

ويتفق أبي عبيد البكري مع معاصره ابن حزم في نفس المعلومات التي ذكرها، إلا أنه يحدد زمن دخول البجلي إلى السوس قبيل دخول أبي عبد الله الشيعي إفريقية، ويشير إلى أن صاحب السوس كان حمزة بن جعفر من بني عبيد الله بن إدريس بن إدريس، غير أنه لم يتعرض لذكر فتح هذه البلاد على يد المرابطين[5].

لقد خرج المرابطون للجهاد ورفع راية الإسلام، وتوحيد المغرب مذهبياً وسياسياً، فكان هدفهم الأول بعد القضاء على مملكة غانة الوثنية في السودان، القضاء على النحل والمذاهب المخالفة للسنة ونشر المذهب المالكي وجعله المذهب الوحيد للمغرب. فتوجهت جيوش المرابطين لغزو بلاد المصامدة والسوس 450هـ، فغزوا بلاد جزولة وفتحوا مدينة ماسة، ومدينة رودانة وجميع بلاد السوس» ويضيف ابن أبي زرع «وكان برودانة قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين إلى عبد الله البجلي

(4) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل ص 23، ط. الحلبي القاهرة سنة 1968.

(5) البكري: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 160 -161.

الرافضي، قدم السوس حين قدم عبيد الله الشيعي إلى إفريقية فأشاع هناك مذهبه، فورثه بعده جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، لا يرون الحق إلا ما في أيديهم، فقاتلهم الأمير أبو بكر بن عمر، وعبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة، وقتل بها من الروافض خلق كثير، فرجع من بقي منهم إلى السنة، وأخذ أموال من قتل منهم فجعلها فيئاً للمرابطين، وأظهر الله المرابطين، وأعلى كلمتهم ففتحوا معاقل السوس، وأطاعتهم جميع قبائلها»[6].

ولكن هل قضى المرابطون فعلاً على الشيعة الرافضة في منطقة السوس؟ وهل انتهى أمر المالكية الحشوية بها؟. لا أعتقد ذلك! فإن هذه المذاهب خصوصاً الرافضة التي دخلت المنطقة في المائة الثالثة للهجرة، وتوارثته الأجيال ليس من السهل أن نتوقع أن يقضي المرابطون عليه تماماً بهذه المعركة، لكن من المحتمل أن هذه القبائل أعلنت تخليها عن مذهب الروافض، واعتنقت المذهب المالكي تقية لها، وفي نفس الوقت تورث أبناءها مذهبها خفية، والدليل على ذلك ما ذكره الإدريسي، وهو معاصر لآخر عهد المرابطين وبداية الموحدين إذ يقول: «وأهل السوس فرقتان: فأهل مدينة تارودنت يتمذهبون بمذهب المالكية وهم حشوية، وأهل بلد تويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر وبينهم أبدأ القتال وسفك الدماء وطلب الثأر[7].

وتذكر المصادر الموحدية ومن نقل عنها أن ابن تومرت ينتسب

---

(6) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 129.

(7)الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 228، ط بالرم سنة 1964.

إلى منطقة السوس وإلى إيجلي أو ايجليز، وإيجلي بها قبر عبد الله بن إدريس العلوي الذي أسس مدينة تامدلت[8].

فابن تومرت كان متأثراً بالروافض البجلية لا شك في ذلك، فإن لم يكن معتنقاً لها، فهو على الأقل يعرف عنها الكثير، ويعزز هذا الرأي ما ذكره المراكشي «وكان يبطن شيئاً من التشيع»[9] ويزيد شكي ذلك النسب الذي ادعاه لنفسه بانتسابه للأمير حمزة بن جعفر بن عبيد الله بن إدريس حاكم السوس الذي احتضن الشيعة البجلية[10] والتي تقول بأن الإمامة في أبناء الحسن وليس الحسين، مما يجعلنا نرتاب في رحلة ابن تومرت ونواياه منذ خروجه من السوس. فهو عندما رحل عن المغرب كان يحمل في نفسه قراراً بالانتقام من المرابطين الذين قتلوا أهل المنطقة من الروافض البجلية، وحاولوا فرض مذهبهم المالكي، ودعوا للخلافة العباسية. ولا شك أن ابن تومرت قد قرأ في كتب

---

(8) مجهول: كتاب الاستبصار، ص 128.

(9) المراكش: م. س. ص 183.

(10) ذكر البيدق نسب المهدي بن تومرت وهو محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ويقول هذا نسبه الصحيح - ثم يقول: وأما ما يروا في نسبه (رضه) أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن رباح بن عطاء بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن فاطمة بنت الرسول ﷺ فإن قرابته وأهل العناية بهذا الشأن لا يعرفونه والله أعلم.

كتاب الأنساب ص 12 -13.

الشيعة المنتشرة عن المهدي صاحب الشامة الذي ينتسب إلى الرسول ﷺ وأنه يخرج من بلاد المغرب والتي روجها الفاطميون.

بتتبع رحلة ابن تومرت إلى المشرق من وقت خروجه من قريته، نجد أنه من الطبيعي أن يمر على أغمات، وأغمات في عصر المرابطين كان لها شأن كبير، يسكنها مياسير التجار[11]، وهي مدينة المتصوفة[12]، ومدينة العلم والعلماء، وهي أول المدن المغربية التي تأسست بها مدرسة لعلم العقائد وأصول الدين، أسسها العالم القاضي الفقيه أبو بكر المرادي في عام 460هـ عندما صحب الأمير أبي بكر بن عمر أمير المرابطين[13] وتذكر المصادر أن أبا بكر المرادي هو أول من أدخل علم الكلام إلى المغرب، ويقول ابن بشكوال «وله في أصول الدين تواليف حسان»[14] وقد استمر يدرس بها حتى وفاته سنة 489هـ بمدينة أزكى، فخلفه في هذه المدرسة أحد طلبته وهو الفقيه الزاهد أبو الحجاج يوسف الكلبي الضرير[15]، فألف أرجوز في علم الكلام قاربت الألفين من الأبيات[16] كان يقرأها على طلبته في مسجد

---

(11) انظر كتابنا دور المرابطين في نشر الإسلام في إفريقيا.

(12) ذكر التادلي 26 من أعلام المتصوفة في كتابه التشوف.

(13) القاضي عياض. الغنية رقم 97، ص 266 تحقيق ماهر زهير، السيوطي: بغية الوعاة، رقم 2198، ص 362.

(14) ابن بشكوال: الصلة رقم 1509، ص 644.

(15) التادلي: التشوف رقم 11، ص 105.

(16) توجد هذه لأرجوزة ضمن شرح لها بخزانة القرويين بفاس تحت عنوان «في العقائد» وانظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص 401.

أغمات، فيحفظونها ويرددونها عنه إلى أن توفي عام 540هـ، فخلفه أحد طلبته في هذا العلم هو أبو عبد الله مالك بن مروان اللجوسي الضرير[17]، وكان ممن أخذ العلم عن القاضي أبي بكر بن العربي.

فازدهار الحركة الفكرية هذه في مدينة أغمات لدليل قاطع على دحض مزاعم الموحدين ومن تبنى آراءهم المضللة من أن المرابطين حاربوا علم الكلام ولدليل أيضاً على أن هذه المنطقة كثر بها الجدل بين أصحاب المذاهب المختلفة فانبرى لها علماء المرابطين، ولغياب مصادرهم لا نستطيع الجزم برأي قاطع، وإن كان هناك العديد من تراجم علماء الكلام، وأصول الدين متناثرة في كتب التراجم، بل إن اتهام ابن تومرت لهم بالتجسيم كان المقصود به على ما يبدو المالكية الحشوية المقيمين في السوس والذين كانوا على عداء دائم مع الشيعة الرافضة كما ذكرنا من قبل.

لا شك أن ابن تومرت قد اتصل بهذه الحركة العلمية، وقرأ كتب الباطنية التي كانت منتشرة في الغرب الإسلامي، والتي أقبل عليها بعض طلبة العلم، يقول ابن الخطيب «وكثر اهتمامهم بموضوعات الغلاة من الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفا»[18]. فهل حضر بعض مجالس العلم بأغمات؟ وهل أخذ عن بعض شيوخها؟ لا نجد إجابة على هذه التساؤلات، فالغموض يغلف حياة هذه الشخصية التي كانت سبباً في تغيير مرحلة مهمة من تاريخ الغرب الإسلامي».

(17) التادلي: م. س، رقم 113، ص 266.

(18) ابن الخطيب: الاعلام، ص 249.

لقد اتجه ابن تومرت من المغرب إلى الأندلس، ومما يلفت النظر عدم إقامته بقرطبة أو ألمرية، أو أي بلد أندلسية لأخذ العلم عن شيوخها طالما أن غرضه الأول هو العلم، لكننا نلاحظ أنه سارع بالسفر دون أن يلتقي بأي من شيوخ العلم بالأندلس، مما يزيد الشك في أن سفره إلى الأندلس لم يكن من أجل العلم، بل كان بمثابة نقطة انطلاق فقد استقل السفينة المتجهة إلى الشرق من ميناء ألمرية، ونزل بالإسكندرية، فالتقى بالطرطوشي الذي كان مقيماً بها[19]. فهل أخذ عنه العلم؟، وهل اكتفى بمدينة الإسكندرية ولم يذهب إلى القاهرة عاصمة الفاطميين العبيديين؟.

قبل الإجابة على هذه الأسئلة، نعرف أن الدعوة الفاطمية انقسمت بعد وفاة الخليفة المستنصر الفاطمي سنة 487هـ إلى شيعتين: فريق مع الابن الأصغر الذي تولى الخلافة بعد أبيه باسم المستعلي وسموا بالمستعلية، والفريق الثاني ناصروا الابن الأكبر نزار صاحب الحق في الإمامة، وكان نزار قد هرب إلى الإسكندرية حيث توجد شيعته، وانتهى الأمر بمقتله، فقام بالدعوة له الحسن بن الصباح في فارس وسموا بالباطنية أو النزارية أو الحشاشين، وسموا أنفسهم بأصحاب الدعوة الجديدة، وكان الحسن بن الصباح إماماً في علم الهندسة والحساب والنجوم والسحر[20]، وكذلك معظم أعوانه، وكان اعتناق الحسن بن

---

(19) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 5، رقم 688، ص 47، وما بعدها.

(20) ابن خلدون: العبر، جـ 4، ص 201، ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 117، الشهرستاني: الملل والنحل ص 195، طبعة الحلبي سنة 1968.

الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد في تاريخ الدعوة[21]، فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور والدعوة إليه بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة 296 هـ على الإمامة الظاهرة لا على المستورة أي بعد قيام دولة الفاطميين، وأهم ما يميز دعوة الحسن بن الصباح العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة في أماكن حصينة يجتمع فيها دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم ومحاربة المستعلية[22]، كما عمل على تنظيم جماعته تنظيماً دقيقاً يضمن لهم البقاء فقسم جماعته إلى مراتب ودرجات بلغت سبعاً، وجعل للأعضاء شروطاً وحدد لهم حدوداً خاصة، وكانت الدعوة تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس وهي:

1 ـ التفرس: ويقصد به إدراك مكنونات النفس ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده.
2 ـ التأنيس: وهو بعث الطمأنينة والأمن في نفس المريد أو المدعو وإشباع ميوله كل حسب رغبته.
3 ـ التشكيك: وهو زعزعة عقيدة المدعو.
4 ـ التعليق: وهو ترك المريد بعد تشككه متأرجحاً في عقيدته متشوقاً إلى معرفة المذهب.
5 ـ التدليس: وهو أن يلجأ الداعي إلى التمويه والادعاءات الكاذبة ليزيد من إغراء المريد وتشويقه.
6 ـ التأسيس: وهو تثبيت المعلومات التي أدلى بها الداعي حتى تستقر في ذهن المريد ويؤمن بها.

---

(21) د. حسن إبراهيم حسن: م. س، ص 272.

(22) ن. م.

7 ـ الخلع: ويقصد به إقصاء المريد عن المذاهب السنية[23].

وهذه الخطوات التي كان يتبعها الدعاة النزارية تشبه إلى حد كبير المصطلح الحديث «غسيل المخ». وقد امتازت دعوة الحسن بن الصباح في ذلك الوقت بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه، وما دام هو نائب الإمام [نزار بن المستنصر الفاطمي] فقد أصبح مصدر العلم والعرفان، وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت الحسن بن الصباح على حمل السيف في وجه الدولة العباسية، ولجأ إلى تأويل القرآن للنزارية تأويلاً يتفق وطموحاته السياسية، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم، وقدسه المستجيبون، واستغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق، وجعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بالقوة البدنية، وكان سلاحهم الذي تميزوا به خناجر مسمومة يهددون بها مخالفيهم ولذلك سموا بالفداوية، وكان الحسن بن الصباح يصدر أوامره من قلعة أَلَمُوت فيطيعها النزارية في كل مكان[24].

ونلاحظ من خلال المصادر الموحدية التي أشارت إلى

---

(23) ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 117.
د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ 4، ص 272، 273.
د. طه أحمد شرف، الإسماعيلية وتاريخهم السياسي حتى سقوط بغداد. وعن العقيدة الإسماعيلية انظر كتاب «المجالس المستنصرية» للمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ومجالس القاضي أبو حنيفة النعمان.

(24) ن. م.

المهدي بن تومرت مدى تأثره بسيـرة الحسن بن الصباح وفي تخطيطه لسير الدعوة فابن خلكان يقول «ثم إن محمداً استدنى أشخاصاً من أهل الغرب أجلاداً في القوى الجسمانية أغماراً وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن»[25].

وعلى أية حال أعتقد أن ابن تومرت انتقل من الإسكندرية معقل أنصار نزار بن المستنصر بعد أن التقى بدعـاة النزاريـة المطاردين من رجال الخليفة الفاطمي الآمر بن المستعلي (494: 495). وأشك في أنه تلقى العلم عن الإمام الطرطوشي بها، وإنما كانت لقاءات عادية لمعرفة اتجاه الإمام الطرطوشي الذي تعاون مع الوزير الفاطمي المأمون البطائحي، وألف له كتاب سراج الملوك، والمعروف بسراج الهدى. وكان للطرطوشي دور في تعديل قانون الوراثة في عهد الفاطميين الذي قضى بأن ترث البنت كل ما تركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت، وهذا يخالف مذهب السنة الذي يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة، وقضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعة والسنة وفق مذهبه المشهور[26].

بعد الإسكندرية رحل ابن تومرت إلى الشام، ثم بغداد، والشام في ذلك الوقت كانت مليئة بالنحل الملحدة والمذاهب الباطنية والإمامية كمـا وصفها ابن العربي في رحلته، وكانت خاصة بدعاتهم، وكان لهؤلاء الدعاة أساليبهم في اصطياد طلبة العلم، خاصة الغرباء منهم الذين لم يتم تكوينهم العلمي، أو من

(25) ابن خلكان م. س، ص 48.

(26) د. حسن إبراهيم حسن: م. س. ص 462.

ذوي الطموح والأطماع، وابن العربي يبين لنا كيف التقى بهؤلاء الدعاة وكيف استطاع أن ينجو من براثنهم لتمكنه من علمه واستعداده لمحاجاتهم والرد على آرائهم، وكشف أباطيلهم فأمن الانزلاق في حبائلهم فيقول: «وقلت الحمد لله الذي أعذر وأنذر، وثبت وبصر، هذه أرض ينبغي أن يشد إلى الاعتصام فيها الحزام، ويغض عن غرر هذه العورات الختام»[27] - «فلو فجأتني بدعة مشتبهة كالقول بخلق القرآن، أو نفي الصفات، أو الإرجاء، لم آمن بإغواء الشيطان وانتدابه، أن يولجني من بابه، فلما رأيت هذه الحماقات أقمت على حذر»[28].

أما بغداد فقد بلغ فيها الصراع العقائدي والسياسي في ذلك الحين مداه، وكان أمر الباطنية قد استفحل، وشوكتها قد اشتدت، فأخذت تغتال ذوي المناصب السياسية، والدينية، وتقوم بنشاط دعائي لمذهبها ودعوتها ومناهضة العباسيين ومحاولة تقويض الخلافة العباسية حتى أن دعاتها الباطنية كانوا يؤثرون على الملوك والوزراء والأمراء أنفسهم، وأذاعت مناشير في بغداد تدعو الناس إلى مذاهبها، بل لقد دخلت مناشيرهم[29] إلى مجلس الخليفة المستظهر بالله (487 هـ: 512 هـ) (1094: 1118م).

لا شك أن ابن تومرت حضر بعضاً من المناظرات العلمية والمجادلات التي كثرت في ذلك الوقت بين الباطنية وبين أهل

(27) ابن العربي: م. س. ص 60.

(28) ن. م.

(29) ذكر القاضي ابن العربي بعضاً من هذه المناشير في كتابه العواصم من القواصم.

السنة والتي انبرى لها فطاحل العلماء على ذلك العهد وألفوا فيها الكتب، بل من المرجح أن ابن تومرت التقى ببعض دعاتهم الذين وجدوا فيه بذرة صالحة لنشر دعواهم في الغرب الإسلامي الذي كان لا يخلو من دعاتهم المنتشرين في كل مكان، فجند من طرفهم لتقويض دولة المرابطين السنية التي تدعو للخلافة العباسية في الغرب الإسلامي كله، فلقنوه تعاليمهم، وأشربوه علمهم، وأخذ عنهم علم التنجيم، وخط الرمل وغيره من العلوم التي تجوز على العامة، ومما يدعم هذا الرأي قول المراكشي عن ابن تومرت «وكان يبطن شيئاً من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيئاً»[30] ويضيف «وكان أوحد أهل عصره في علم خط الرمل وأنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بني العباس أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه»[31].

ثم تأتي رحلة العودة فيذهب إلى مكة والإسكندرية ويحل بعدها بإفريقية وفي كل المدن التي حل بها سواء في مكة أو الإسكندرية يتعرض لمطاردة السلطة والحكم الفاطمي أو حزب المستعلية المناهض لآراء ابن تومرت بالطبع، وليس كما ذكر في المصادر بأنه كان ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف، وإنما لدعوته لإمام مستور سوف يظهر بالمغرب.

---

(30) المراكشي: المعجب، ص 188.

(31) ن. م. ص 180.

والجفور خاصة بالشيعة ينسبونها إلى الإمام جعفر الصادق ادعوا أنه كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة.

والغريب أن رحلة العودة بعد غيبة طويلة تقرب من العشر سنوات عن أهله ووطنه، لا نشتم منها أي ريح للشوق أو التعجل للوصول إلى مسقط رأسه، أو الحنين إلى أسرته، وكأنه لا يتحرك إلا بتخطيط وترتيب معين! فبعد مدة من إقامته ببجاية وهي على ما يبدو كانت مركزاً مهماً يلتقي به الدعاة، يرحل إلى قرية ملالة القريبة منها حيث يأتي إليه الشاب ذو الطموح عبد المؤمن بن علي صاحب المواصفات التي يريدها ابن تومرت للقيام بمهمة المستقبل والذي سماه صاحب الوقت»[32].

وكان المفروض أن يتحرك ابن تومرت تاركاً ملالة بعد أن حصل على بغيته ولكننا نجد أنه يطيل المقام شهوراً ولا يتحرك إلا بعد أن يصل شخصان من السوس من منطقة درن ومن تينملل بالتحديد، فيقرر فجأة التوجه إلى بلاد المغرب الأقصى في مساء نفس اليوم. يقول البيدق «فلما كان يوم من الأيام أقبل رجلان يريدان المشرق اسم أحدهما عبد الله بن عبد العزيز والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم، فقال لهما الإمام رضي الله عنه: من أين أقبلتما أيها الرجلان؟ قالا: من بلاد المغرب، ولما وصلنا بقيا باهتين، فقال لهما الإمام المعصوم رضي الله عنه، مالكما لا تتكلمان؟ فقالا له: نحن ما نفهم العربية بلسانهما، وقالا له: يا فقيه، وصلنا من درن، من تينملل. فسألهما في قولهما ودعا لهما، وسارا. فلما أمسى المساء قال لنا: عولوا على السير نحو المغرب إن شاء الله»[33].

---

(32) البيدق: أخبار المهدي، ص 30.

(33) البيدق، م. س. ص 17.

يتضح من خلال عبارة البيدق أنه كان هناك معرفة أو هناك شيء أراد الرجلان إبلاغه لابن تومرت، وما ادعاؤهم عدم فهم العربية إلا للتمويه.

ووصل ابن تومرت إلى مراكش ولنترك ما أحدثه من افتعال لبعض الشغب حتى يلفت الأنظار، وما قيل عن لقاء أمير المسلمين وابن تومرت، وعن تلك المناظرة بين فقهاء الأمير علي بن يوسف وإن كنت أشك في تفوق ابن تومرت على هؤلاء الفقهاء، وأن ما حدث هو العكس. لأنه لو أفحم هؤلاء العلماء حقيقة وأبان جهلهم، لاستعان به الأمير علي بن يوسف واصطفاه لنفسه، فلم يكن بالأمير الجاهل. وقد أوقفتني عبارة ذكرها ابن خلكان نقلاً عن «كتاب المعرب في سيرة ملوك المغرب» وهي: وكان [أي ابن تومرت] إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به، خلط في كلامه فينسب إلى الجنون»[34]. والشخص الوحيد الذي اكتشف دجل ابن تومرت وحقيقة أغراضه وزير الأمير علي بن يوسف العالم الفقيه مالك بن وهيب، وهذا ما أخاف ابن تومرت من تأثير ابن وهيب على أمير المسلمين، فاتجه إلى أغمات عند عبد الحق بن إبراهيم، ويبدو أنه أحد الدعاة بها، أو أخاه في الله كما وصفه. يقول ابن خلكان: «فلما خرج محمد وأصحابه من عند الملك قال لهم: لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب، فما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاءً صالحاً، واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم، وهو

---

(34) ابن خلكان: م. س. ص 46.

من فقهاء المصامدة فأشار عليه بالتوجه إلى تينملل»[35].

فهل ابن تومرت عندما توجه إلى أخاه في الله أو في الدعوة عبد الحق بن إبراهيم كان يريد التأكد من أن الجهة المقصودة هي تينملل كما أبلغه الداعيان بملالة؟.

إن اختيار تينملل لم يكن عفوياً، أو كما ذكر أنه مكتوب في الجفر[36]، فاختيار تينملل تم لحصانة موقعها، ولأنه يشبه تمام الشبه المنطقة التي بها قلعة أَلَمُوت بقزوين وحتى الطريق المؤدي إليها، بل وحتى الطريقة التي اتبعها ابن تومرت في الاستيلاء على تينملل وبناء حصن له فوق قمتها[37] هو نفس الأسلوب الذي اتبعه

---

(35) ابن خلكان: ن. م.

(36) يقول ابن خلكان نقلاً عن كتاب المعرب في سيرة ملوك المغرب أن محمد بن تومرت كان قد اطلع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله ﷺ يدعو إلى الله يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه (ت ي ن م ل) ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة.

(37) يقول ابن القطان «أن أهل مدينة تينملل بعثوا رسلهم إلى الإمام المهدي رضي الله عنه يعلمونه بطاعة هزميرة الجبل، وأن مجيئه وسكناه عندهم أصلح له، وأقرب من تسامع الناس به، فرحل إليهم رضي الله تعالى عنه بجميع من أطاعه وحصل بتينملل، وأكرمه أهلها وأنـزلوه في المدينة، وأضافوه وأطاعوه وبايعوه، فرأى من كثرتهم ومنعة موضعهم وحسن بلدهم ما راقه. فكان يخرج إلى الشريعة من خارجها ويجلس على حجر مربع أمام محراب الشريعة فيعظ الناس، وكانت قبيلة هزميرة =

الحسن بن الصبـاح في الاستيلاء على قلعـة أَلَمُـوت من صاحبها[38].

= يمسكون العدة فقال لهم الإمام يوماً: ما لكم تمسكون العدة وأصحابنا إخوانكم الموحدون أعزهم الله لا يمسكونها؟ فأقاموا على ترك عدتهم زماناً وقد كان الإمام رضي الله تعالى عنه خاف من جهتهم لكثرتهم ومنعتهم وكوشف من حالهم بما اقتضى له تدقيق النظر في أمرهم، فوصلوا في بعض الأيام إلى الوعظ دون عدة، فما شعروا إلا وأصحابه الموحدون أعزهم الله تعالى ورضي عنهم معهم العدة قد أحاطوا بهم، فقتل منهم في ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألفاً، وقتل من ذلك القبيل كل من حضر في ذلك اليوم بتينملل وسبى حرمهم وغنمت أموالهم، فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين من أصحابه، وأصفى ديارهم جوائز جوائز لكل قبيلة جائزة ثم أدار على المدينة سوراً أحاط بوهدتها وبنى على رأس الجبل سوراً، وأفرد في قبته حصناً يكشف ما وراء الجبل - ولا أعلم مدينة أحصن ولا أمنع منها إذ أنها بين جبلين لا يدخلها الفارس إلا من شرقيها أو غربيها، فأما غربيها فطريق أوسع ما به ما يمشي عليه الفارس وحده، وأضيقه ما ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه لأن الطريق مصنوعة في نفس الجبل تحت راكبها حافات وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت لم يجر عليها أحد، ومسافاتها على هذه الضفة نحو من مسيرة يوم وكذلك من شرقيها وهي طريق مراكش على صفة الغربية.

ابن القطان: نظم الجمان ص 93، 94، 95، الحلل الموشية ص 113.

(38) ويذكر ابن الأثير طريقة استيلاء الحسن بن الصباح على أَلَمُوت فيقول: «عندما وجد الحسن بن الصباح مناعة المنطقة واطمأن إلى أهل ألموت أظهر الحسن بن الصباح الزهد ولبس المسوح ودعاهم إلى الدخول في دعوته فتبعه أكثرهم واستمال صاحب القلعة وكان علوياً والذي أحسن =

إذن ابن تومرت استفاد من النزارية الباطنية، وظهر كرجلهم في الأماكن التي نزل بها، واستفاد من طريقتهم في نشر الدعوة، وأخـذ عنهم الدمـوية في فـرض عقيدتهم وهي مـا سمـوهـا بالتمييز[39]، واستخدام الحيل والدجل في فرض دعوتهم[40]، وبعد أن اطمأن في تينملل وعزز مكانه بها، أحس أن ثمرة العمل يجب أن تكون له، فقد خرج من المغرب وهو يضمر أمراً في نفسه، هو أن يكون المهدي صاحب الشامة الذي يقـوم في المغرب فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الضالين»[41].

وما دام النزارية الباطنية يدعون إلى الإمام المستور، فلم لا يكون هو هذا الإمام الذي يظهر في المغرب، وليكن من نسل الحسن الذي تقول به الروافض البجلية أهل منطقته، وفي نفس الوقت ينتقم من المرابطين الذين حاربوا قومه ومذهبهم، ويبدو أنه مهد لعمله هذا منذ سفره إلى مصر إذ يذكر أبو القاسم المؤمن المصري في كتاب فضائل المهدي هذه العبارة: «كان عام واحد

= الظن به وقربه إليه وتبرك به. ولما أحكم الحسن الأمر واطمأن إلى قوته دخل يوماً على صاحب القلعة وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامغان وأعطاه ماله وملك القلعة.

ابن الأثير: جـ 10 ص 116 -117.

(39) عن التمييز انظر البيدق: أخبار المهدي، ابن القطان: نظم الجمان، ابن أبي زرع: روض القرطاس، الحلل الموشية.

(40) انظر حادثة دفن جماعة من أصحابه أحياء ليشهدوا بصحة المهدي ويخبروا بما يلاقون من نعيم وذلك عن ألسنة أموات من أصحابه.

ابن تيمية: الفتاوى، جـ 11، ص 477، 478، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 129.

(41) روى زاذان عن سلمان الفارسي أنه قال: «لا بد من قائم من ولد فاطمة يقوم في المغرب فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الضالين.

وخمسمائة عاهده فيها أهل التحقيق من العارفين به رضي الله عنه وبايعوه بيعة سر»[42]. ويضيف البيدق عبارة أخرى على جانب من الأهمية فيقول: «غير أن الرجال الذين آخوه في الله تعالى وعظموه في سائر البلاد المصرية، وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره، مؤمنين به مختارين صحبته مؤثرين لحقه، معظمين لحرمته، ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقـامة هناك[43].

لا نستطيع الجزم على أي شيء بايعوه؟ هل بايعوه على ما يدعو إليه من الدعوة للإمام المستور من آل البيت! أم على أنه المهدي صاحب الشامة الذي يخرج من المغرب من أبناء فاطمة الزهراء؟، أم بايعوه على تقويض دولة المرابطين السنية؟.

من المرجح أنه كان يدعو أو يعمل على أخذ البيعة للإمام المستور وكان لفضول وسذاجة أبي بكر المعروف بالبيدق خادم المهدي فائدة في بعض الأحيان، نظراً للغموض الذي يكتنف ابن تومرت ويحيط به فقد ذكر لنا عدداً من الأسماء أصدقاء له بالديار المصرية «أدخلها الله في الأمر العزيز» وعدداً من الأسماء بالبلاد الشامية من باب المفاخرة بأن المهدي كان معروفاً شرقاً وغرباً نقلها عن أبي القاسم المؤمن المصري، ويؤكد أنه وجد بعضها مصوراً قائلاً: «وإنما أتيت بهذه الجماعة الذين صحبوا المهدي رضي الله عنه بتلك البلاد وإن كنت ألفيت بعضها مصوراً لأبين كونه معروفاً مشرقاً ومغرباً»[44].

---

(42) ابن القطان نظم الجمان، ص 5.

(43) البيدق: الأنساب، ص 29 -30.

(44) ن. م.

فهل رأى البيدق هذه الأسماء في أوراق ابن تومرت الخاصة؟ من واقع أنه كان خادمه الخاص، وقد سبق له أن أتى ببعض الأوراق من صندوقه طلبها منه عندما التقى بعبد المؤمن في ملالة[45]! وعبارة البيدق تدل على أنه كون فريقاً من الدعاة للإمام المستور الذي يدعو له الباطنية النزارية في الظاهر، بينما هو يمهد لهذا الأمر لنفسه، فالدعوة لآل البيت شعار غامض في كل الدعوات التي قامت عليه بدءاً بالدعوة العباسية، ثم أخذها الشيعة عنهم فيما بعد، ولم يفت ابن تومرت أن يستغل هذه المعطيات استغلالاً سياسياً فيما هو عازم عليه من مقاومة المرابطين، وما يستدعيه ذلك من التفاف أتباعه حوله واستقطاب القبائل، وإرسال الدعاة في كل مكان[46].

ومن الملاحظ أن ابن تومرت لم يتخذ أو يعتمد على رجال مشهود لهم بالعلم، بل اعتمد على شباب من أنماط معينة، حتى لا يكشفه أحد، «وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار» ولم نعثر في المصادر الموجودة عن فقيه أو عالم مبرز في علم من العلوم انضم إليه أو اقتنع بكلامه، «وكان ذوو العقل والعلم والحلم من أهالي الأحداث والأغمار ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه»[47].

ولم يعلن لأصحابه دون سابق تمهيد بأنه هو المهدي المنتظر تحسباً من أن تستعصى هذه المقولة عن تصديق بعضهم رغم

(45) البيدق: أخبار المهدي: ص 19.

(46) ابن جبير: الرحلة، ص 52.

(47) ابن خلكان: م. س. ص 48.

عهدهم بفكرة المهدي مجرداً عن شخصه، فكان يشير إلى قرب ظهوره، ولما كثر أتباعه عند حلوله بتينملل، جعل يشوق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه، ونسبه، وصفته، ثم خطب خطبته التي لمح فيها إلى نفسه بأنه المهدي، وسارع تلميذه وصفيه وصنيعته بإعلان أن هذه الصفات لا تنطبق إلا على معلمه وبايعه، فتعاقب الآخرون على بيعته[48].

والمهدي أو المهدوية ليست أمراً غريباً على أهل السوس فقد ترسخت عندهم من القرن الثالث الهجري. وفي واقع الأمر قابلت معظم قبائل المغرب عقيدة المهدي بالرفض، سواء كان رفضاً صامتاً أو رفضاً علنياً تمثل في كثرة الثورات والانتفاضات[49].

فعندما أسفر ابن تومرت عن حقيقة دعوته وإعلانه بـدعوة المهدي والإمام المعصوم، ترددت معظم القبائل التي استجابت له، بل إن قبائل تينملل الذين آووه، راجعوا أنفسهم في دعوته، ويبدو أنهم حاولوا الإيقاع به، ولكنه كان أسرع منهم فاستعمل الحيلة وقضى عليهم[50].

ومع أن الموحدين نجحوا في إقامة دولتهم، إلا أنهم فشلوا في فرض عقيدتهم على الغرب الإسلامي، وظل المذهب المالكي هو أساس نظام الحكم، وأساس وحدة المغاربة المذهبية حتى في أوقات التفكك السياسي.

---

(48) المراكشي: المعجب، ص 254.

(49) عن هذه الثورات انظر: البيدق أخبار المهدي، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الموحدي.

(50) ابن القطان: م. س. ص 94.

ولم ينقطع دعاة الشيعة عن المغرب بعد سقوط الموحدين وظل الأمل يراود قبائل المصامدة خصوصاً في تينملل بعودة المهدي كما وعدهم يقول ابن خلدون: «وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة أن الأمر سيعود وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب تملأ الأرض كما وعدهم المهدي، لا يشكون في ذلك ولا يستريبون فيه»[51]. وذكر في مكان آخر أن الشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن لقي في منصرفه من حج موسم 724هـ أبو عبد الله بن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن كان داعية بالزاب للفاطمي المنتظر»[52].

ويحدثنا الغبريني في عنوان الدراية عن الشيخ أبي العباس الجدلي الشريف من أهل أصبهان الذي وصل إلى إفريقية في خلافة المستنصر بالله الحفصي، فلما سأله عن بلاده وعن وجهته قال له: جئت في طلب أخ لي في المغرب، وألغز في هذا عليه لأنه إنما كان للإمامة، والأخ الذي أشار إليه بالمغرب هو الإمام المهدي رضي الله عنه، ثم انفصل من إفريقية وورد على بجاية وأقام بها مدة، ثم انفصل إلى المغرب ومنها إلى سبته، ثم توجه إلى درعة حيث توفي[53].

وبعد فهذا الموضوع ما زال فيه الكثير من الثغرات نظراً لفقد المصادر المعاصرة، ولعل بمرور الزمن نجد لها تفسيراً.

---

(51) ابن خلدون. م. س. ص 466.

(52) ن. م. ص 415.

(53) الغبريني: عنوان الدراية، ص 106 -107.

كلمة حق في المرابطين

وأخيراً فمهما كانت دوافع ابن تومرت للقيام على المرابطين فإن الفوضى التي افتعلها، والحرب التي أشعلها، والفتنة التي أيقظها، لم تكن لها ضرورة، فلم يُكَوِّن المرابطون دولة ملك وسلطان واستمتاع وتدهور سياسي واقتصادي واجتماعي كما هو الحال مع الدول التي تقوم عليها الثورات، بل كانت دولة جهاد وإصلاح وتقويم وإنقاذ وكانت فتنة ابن تومرت ضعفاً لدولة الإسلام والمسلمين، في وقت كان الجناح الغربي في أمس الحاجة لسواعدهم وجهادهم.

والمرابطون هم الذين وحدوا المغرب لأول مرة سياسياً ودينياً، وقضوا على التمزق السياسي والمذهبي، وهم الذين أوقفوا التقدم النصراني بانتصارهم في عدة معارك حاسمة كالزلاقة[1] 479هـ/

---

(1) عن الزلاقة انظر: عبد الله بن بلقين: البيان ص. ص. 84، 110، الحلل الموشية ص. ص. عبد الواحد المراكشي: المعجب ص. ص. 130 :135، الحميري: الروض المعطار، مادة زلاقة، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص. ص. 144 :149، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص. ص. 275 :286.

1186م، وإقليش[2] 501هـ/ 1108م، وإفراغه[3] 528هـ/ 1134م، فكانت هذه الانتصارات سبباً في ثبات جبهة الأندلس بعد أن أوشكت على الانهيار في عصر الطوائف الأول، فبقي الإسلام والمسلمون بعدها ما يقرب من أربعة قرون.

لقد وصم المرابطون بالقسوة وأنهم أجلاف بدو، غزوا الأندلس طمعاً في خيراتها، فحكموها بالحديد والنار، ولكن من خلال المصادر يتبين أن الحكم المرابطي كان نموذجاً متقدماً للحكم الديمقراطي (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا اللفظ) الذي تفتقره الكثير من الدول المعاصرة في وقتنا[4].

وكان للمرابطين الفضل في المزج بين ثقافة وحضارة الأندلس مع ثقافة المغرب والسودان، وأياديهم البيضاء وجهادهم في نشر الإسلام والثقافة العربية جنوب الصحراء لا ينكره إلا جاحد لا يقر الحقيقة[5].

---

(2) عن إقليش انظر: ابن القطان: نظم الجمان، ص 5، ابن عذاري: البيان المغرب، ص 4، ص 50، روض القرطاس، ص 160، مقالة للمستشرق هويس ميراندا من مجلة تطوان 1957.

(3) عن إفراغة انظر: ابن القطان: م. س. ص 219.

Codera, F. Dec. y, de los Almoravides, P. 272.
La fuente, M., Historia Général de Espana, Vol. III. 243.

(4) انظر ابن عذاري: م. س. ص 4 ص. ص. 56، 80، ابن رشد: البيان والتحصيل، ص 15 باب الديات، د. محمد عبد الوهاب خلاف: وثائق من أحكام القضاء الجنائي في الأندلس من الأحكام الكبرى لابن سهل، ص. ص 52، 62.

(5) انظر. كتابنا دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا.

وبرغم النقد الشديد الذي وجه لأمراء المرابطين بسبب ما أتاحوه للفقهاء من سلطة وسلطان، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول، ويرجع للغالبية من هؤلاء الفقهاء الفضل في نشر العلوم الدينية في مجتمع لم يكن يجيد العربية، وحفل عصر المرابطين بأسماء عديدة لامعة في الفقه والتفسير والأصول وعلم الكلام والفلسفة والطب والهندسة والتاريخ والجغرافيا، وعصرهم هو العصر الذهبي للنثر الفني وكتابة الرسائل والشعر، وفن الزجل والموشحات[6].

نعمت البلاد في عهدهم بالأمن والرخاء الاقتصادي، وكانوا أول من شجع الزراعة في شكل مستغلات للتصدير، وبلغت الصناعة درجة متقدمة من الرقي خصوصاً صناعة المنسوجات، يقول الإدريسي[7] المعاصر لهم عن مدينة ألمرية «كانت في أيام المثلم مدينة الإسلام، وكان بها من طرز الحرير ثمان مائة طراز، يعمل بها الحلل[8] والديباج والسقلاطون[9]، والأصبهاني[10] والجرجاني[11] والستور المكللة، والثياب المعينة[12]،

---

(6) د. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 562 ط. نايلي 1972.

(8) الحلل نسيج حريري يحلى بخيوط الذهب.

(9) السقلاطون: نسيج حريري مطرز بالذهب نقله المسلمون عن اليونان.

(10) (11) الأصبهاني والجرجاني نسبة إلى أصبهان وجرجان بفارس.

(12) الثياب المعينة نسيج من القطن أو الكتان مزين بترابيع صغيرة على شكل معينات.

والخُمر[13]، والعتابي[14]، والمعاجر[15]، وصنوف الحرير».

وبعد فهذا دفاع! ليس دفاع تعصب أعمى أو انبهار بهذه الفئة المجاهدة، أو إعجاب بسلوك أمرائها الذين أعادوا سيرة المسلمين الأوائل في صدر الإسلام، ولكنه كشف عن حقيقة غابت عن البعض، معتمدة فيها على مصادر كتبها أعداؤهم من مؤرخي الموحدين، ومن نقل عنهم، وإن كان خطأ المرابطين الرئيسي هو التسامح الشديد تجاه مثيري الفتن، فالجماعة لا تقوم لها قائمة ما لم يقهر كل مجترىء على وحدتها وكان على السلطان سحق المنتري أو الثائر من البداية، «لأنه إذا لم يسارع إلى ذلك اتسع الخرق واشرأبت نفوس الناس إلى فتنة»[16] والفتنة تؤدي إلى نقص الجباية أي إضعاف مالية الدولة وتصبح الرعية كارهة للسلطان شاكّة في قدرته وقد ملّت انعدام الأمن.

---

(13) الخمر أقمشة حريرية تغطي بها النساء رؤوسهن وتنزل على الوجه فتغطيه.

(14) العتابي نسيج حريري اختصت لصناعته بغداد ونسب إلى محلتها المعروفة بالعتابية.

(15) قماش من الحرير شفاف كانت تتخذه النساء لتغطية وجوههن أو شد رؤوسهن.

وعن مزيد من المعلومات عن الزراعة والصناعة والتجارة انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين في الأبواب الخاصة بها.

(16) ابن حيان: المقتبس، نشر ملشور أنطونيا ص 51، د. وداد القاضي: الفكر السياسي لأبي مروان بن حيان مجلة المناهل عدد 29.

المصـادر والمراجـع

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 10، بيروت 1967.
- الإدريسي: نزهة المشتاق، معهد الدراسات الشرقية، بالرم 1972.
- ابن بشكوال: الصلة، الدار المصرية للنشر 1966.
- البيدق: أخبار المهدي، الرباط 1971.
- البيدق: الأنساب، الرباط.
- ابن جبير: الرحلة، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة 1955.
- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل القاهرة 1317هـ.
- د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ 4، ط 4.
- د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين.
- الحميري: الروض المعطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1975.
- أبو حنيفة النعمان: مجالسه.
- ابن حوقل: صورة الأرض، ط ثانية ليدن 1967.
- ابن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثاني نشر ليفي بروفنسال.
- ابن خلدون: العبر، جـ 6 القاهرة 1968.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 5، تحقيق د. إحسان عباس.
- السيوطي: بغية الوعاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1964.
- الشهرستاني: الملل والنحل، القاهرة 1955.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس، دار المنصور، 1973.

- التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1984.
- د. طه أحمد شرف: الإسماعيلية وتاريخهم السياسي.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949.
- د. عبد الرحمن النجار: المهدي بن تومرت.
- عبد الله بن بلقين: كتاب التبيين، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1955.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب جـ 4 تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1969.
- ابن العربي: العواصم من القواصم. تحقيق د. عمار طالبي، نشره بعنوان آراء ابن بكر بن العربي الكلامية، الجزائر 1974.
- القاضي عياض: الغنية، تحقيق ماهر زهير، بيروت 1982.
- د. عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا بيروت 1988.
- الأندلس من نهاية المرابطين ومستهل الموحدين بيروت 1988.
- الغبريني: عنوان الدراية، الجزائر 1910.
- ابن القطان: نظم الجمان تحقيق د. محمود مكي، تطوان.
- المؤيد من الدين هبة الله الشيرازي: المجالس المستنصرية.
- مجهول: كتاب الاستبصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية 1958.
- الحلل الموشية، تحقيق د. سهيل زكار، وزمامة، الدار البيضاء 1978.

- Codera, F. Dec. y Des los ALMORAVIDES.
- La Fuente, M. Historia Géneral de Espana.

ارتسامات حول التصوف في عهد المرابطين(*)

التصوف كما يعرفه ابن خلدون هو: «محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاماً، ويترقى منها إلى غيرها، وللصوفية آداب مخصوصة بهم، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلح على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه، فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه»[1].

والتيار الصوفي الذي ظهر في عهد المرابطين، وعلى الخصوص في عهد الأمير علي بن يوسف، نجده طابعاً صوفياً فلسفياً «ثيوصوفي» فقد بدأ التصوف الفلسفي يغزو الأفراد والجماعات وانتهى إلى أن أصبح تأملاً عقلياً وجدانياً خالصاً، وهذا النوع من التصوف لم يكن منتشراً في الأندلس أو المغرب، وذلك للموقف العدائي الذي وقفه فقهاء المالكية من التصوف

(*) بحث ألقي في ندوة حول التصوف بالمغرب والأندلس في العصور الوسطى بمدينة أصيلة، أغسطس 1988.

(1) ابن خلدون: المقدمة، جـ ٣، ص 1065.

والفلسفة على السواء، وحتى منتصف القرن الخامس، ولم يوجد من مظاهر التصوف بهذه البلاد سوى حياة الزهد والتبتل والعبادات والرياضيات الدينية، وكان منتشراً بين طوائف لا تكاد تعرف من الفلسفة، ولا من التصوف الإشراقي شيئاً، وإن كان بعضهم على حظ غير قليل من علم الكلام، والعلوم الإسلامية الدينية واللغوية[2].

فالتصوف في هذه الفترة كان يمر بمرحلة متميزة لها معالمها وسماتها الواضحة، وبدأت تتحدد شيئاً فشيئاً، منتقلة من الطور البسيط إلى الطور الفلسفي الذي ظهرت معالمه واضحة كاملة في مذهب ابن عربي[3] في عهد الموحدين. فكان التصوف في عهد المرابطين يمثل المرحلة الوسطى أو مرحلة الانتقال من التصوف الساذج إلى المرحلة الفلسفية الإشراقية ويمثلها ابن العريف وابن برجان والميورقي وابن قسي وابن غالب.

وقد حاول آسين بلاثيوس[4] أن يربط بين هذا التيار وبين اتجاه ابن مسرة (ت 319هـ/ 931م) ويجعله امتداداً له، وتابعه في هذه الفكرة بعض المفكرين مثل لاجاردر .Lagardere, V[5] وأرفوي دومينك[6].

---

(2) د. أبو العلا عفيفي: أبو القاسم ابن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية آداب الإسكندرية مجلد 11 سنة 1957، ص 53.

(3) انظر ترجمته في الذيل والتكملة سفر 6، رقم 1277 ص.ص 493 :498.

(4) Asin Palacios, Miguel,: Ibn Masarra, y Su Escuela, Madrid 1948,

Asin Palacios, Mahasin Al Magalis, Paris 1933.

(5) Lagardere, V. La Tariqua et La Révolte des Muridun.

(6) Urvoy Dominique, une Etude sociologique des Mouvement Religieus dans l'Espagne Musulmane.

ومدرسة ابن مسرة كما هو معلوم تجمع بين مبادىء المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال ومبادىء الباطنية، يقول ابن حزم أن «ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر، وكان يقول أن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وأن الله تعالى علمين: أحدهما أحدثه حملته وهو علم الكتاب، وهو علم الغيب، كعلمه أن سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك. والثاني، علم الجزئيات، وهو علم الشهادة، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك. فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ عَالم الغيب والشهادة ﴾ وكان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله»[7].

وأما المبادىء الباطنية فإنه بناها على آراء منسوبة إلى فيلون السكندري وأفلوطين، ومن هذه الآراء الجمع بين معاني صفات الله والقول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية، وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية ويستنتج مما جاء في كتب ابن مسرة[8] أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس، وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه[9].

وقد استمر تلاميذ ابن مسرة متأثرين بآرائه وأفكاره، وظلت

---

(7) ابن حزم: الفصل من الملل والأهواء والنحل، جـ 4، ص 199.

(8) Asin Palacios, Ibn Masarra.

(9) ابن حزم، م. س. ص. ص 199، 200، .Asin Palacios, Op. cit

آثارهم واضحة فيمن تلاهم من مفكري الأندلس ومتصوفتها، غير أن الدولة رأت أن مثل هؤلاء المفكرين الذين يتجهون اتجاهاً باطنياً، إنما يكونون خطراً حقيقياً على الدولة إذ كانـوا يشكلون خطراً على الوحدة المذهبية، أي الالتزام بمذهب مالك، أو ربما يكونون أدوات ولو من طريق غير مباشر للسياسة الفاطمية التي كانت تطمح إلى بسط نفوذها على العالم الإسلامي[10].

لم ينته تأثير ابن مسرة في الأجيال التي أتت بعده، فقد استمرت في طائفة من المفكرين كان من أبرزهم إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي أدركه ابن حزم، وإن كان لم يلتق به، وقد أحدث الرعيني في المذهب أقوالاً نفرت منه المسريين وكفروه إذ كان يقول «أن الأجساد لا تبعث أبداً، وإنما تبحث الأرواح، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ويصير إلى الجنة، وإما إلى النار، وأنه لا بعث إلا على هذا الوجه أبداً، وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم، وينسب قوله إلى ابن مسرة، ويستشهد على ذلك بأقوال من كتبه، وكان يقول بنكاح المتعة، وهذا المبدأ من أهم الأشياء التي تمسك بها الشيعة الاثني عشرية في فقههم، وكان الرعيني عند فرقته إماماً واجبة طاعته، يؤدون إليه زكاة أموالهم، ويذهب إلى القول بأن الحرام قد عم الأرض، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعته أو تجارته أو ميراث، أو بين ما يكتسبه من الرفاق، وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه،

(10) د. محمود مكي: التشيع في الأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد سنة 1954، ص 180.

وكان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط»[11].

وعلى هذا أصبح علم الشريعة على صنفين كما يقول ابن خلدون صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبارات والمعاملات، وصنف آخر مخصوص بالمتصوفة في القيام بالمجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك[12].

كان هدف متصوفي هذا التيار الجديد أن يدخلوا العنصر الفلسفي إلى تصوفهم اقتداء بالغزالي الذي كان يمثل لهم نموذجاً وقطباً، فعكفوا على كتبه بالدرس والتحصيل ونشروا آراءه ودافعوا عنها في إيمان وحرارة وكان من الطبيعي أن يتخذوا من الغزالي أستاذاً، ومن تعاليمه دستوراً وطريقاً، لأنه كان أدنى إلى مشاربهم في فهمه للدين وموقفه منه ومن التصوف خصوصاً بعد أن ألف كتابه إحياء علوم الدين، وقد شـرح الإمام الطرطوشي حقيقة هذا الكتاب في رسالة بعث بها إلى عبدالله بن مظفر يجيبه فيها عن حقيقة الغزالي وكتابه منها: «فلما عمل كتابه سماه إحياء علوم الدين عمن يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، فلا في علماء المسلمين قر، ولا في أحوال الزاهدين استقر، ثم شحن

---

(11) ابن حزم: م. س.، د. محمود مكي: م. س، وانظر ترجمة إسماعيل الرعيني في: ابن سعيد: المغرب، جـ 1، رقم 58 ص 121، الحميدي: الجذوة، ص 53.

(12) ابن خلدون: م. س.

كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ فلا أعلم كتاباً على وجه بسيط الأرض أكثر كذباً على الرسول منه، ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة، ورموز الحلاج، ومعاني رسائل إخوان الصفا، وهم قوم يرون النبوة اكتساباً، فليس النبي عندهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق وجانب سفاسفها، وساس نفسه حتى ملك قيادها، فلا تغلبه شهواته، ولا يقهره سوء أخلاقه، ثم ساس الخلق بتلك الأخلاق. . . »[13].

على أن ثقافتهم الروحية والفلسفية لم تقف عند الغزالي وكتبه بل تأثرت أيضاً بالتراث الفلسفي اليوناني الذي ترجم في المشرق ثم نقل إلى الأندلس من ذلك فلسفة أفلاطون وأرسطو كما اتصلت بمؤلفات المشرق الإسلامي مثل الفارابي وابن سينا، وإخوان الصفا، وبمؤلفي كبار المتكلمين لاسيما المعتزلة ومؤلفات الصوفية حتى عصر القشيري، ومع أنه لم تظهر في تصوفهم نزعة فلسفية واضحة كما في تصوف ابن عربي في الجيل الذي تلاهم، فقد اتجهوا بالتصوف وجهة جديدة ذات طابع إشرافي متميز في أساليبه ومصطلحاته، ومعانيه كما يظهر ذلك في مؤلفات ابن برجان وابن العريف وابن قسي[14].

وقد بين ابن العريف منازل الحياة الصوفية في كتابه محاسن

---

(13) الرسالة موجودة في المعيار للونشريسي جـ 12، ص 186، الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ 19 ص 339، 494 (عبارة عن مقتطفات).

(14) ألف ابن برجان كتاب الإرشاد، الإشارات، تفسير الأسماء الحسنى، الإلهام. وألف ابن العريف محاسن المجالس، مطالع الأنوار ومنابع الأسرار، ومفتاح السعادة. وألف ابن قسي خلع النعلين.

المجالس الذي حققه آسين بلاثيوس. فرتبها في اثني عشر درجة هي المعرفة، والإرادة، والزهد، والتوكل، والصبر، والحزن، والخوف والرجاء، والشكر، والمحبة، والتوبة وأخيراً الأنس بالله.

ومن الملاحظات الهامة أن التيارات الفكرية التي سادت الأندلس في هذه المرحلة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالتيار الصوفي الفلسفي بجانب التيار الديني التقليدي انتشر في شرق الأندلس، وهذا يرجع إلى طبيعة المنطقة واتصالاتها المستمرة بالمشرق وانفتاحها على تياراته الفكرية التي يحملها التجار والعلماء وطلبة العلم خلال رحلاتهم خصوصاً في ألمرية التي زاد من شهرتها شيخها أبو العباس بن العريف الذي قصده العباد وأهل الزهد من جميع أنحاء الأندلس والعدوة المغربية يأخذون عنه ويتتلمذون عليه، وكانت ألمرية في ذلك الحين تعد أعظم المراكز الروحية في الغرب الإسلامي ومنها خرج عدد كبير من المتصوفة[15].

وفي واقع الأمر نجد أن معظم مدن شرق الأندلس مثل مرسية وبلنسية ودانية وشاطبة وشقر وجزر ميورقة ومينورقة كانت لها نفس اتجاهات ألمرية تقريباً خصوصاً بعد سقوط سرقسطة (512هـ) إذ انتقل عدد كبير من علمائها أو جلهم إلى نواحي الأندلس خصوصاً الشرق، وكانت سرقسطة من المراكز المهمة التي ازدهرت فيها العلوم العقلية في عهد أميرها المرابطي أبي بكر بن تيفلويت الذي اتخذ من الفيلسوف العالم ابن باجة صديقاً، ووزيراً.

---

(15) انظر كتابنا الأندلس في آخر عهد المرابطين (ثورة المريدين).

هذا بالنسبة لشرق الأندلس، أما الوسط فقد التزم بالتيار التقليدي السلفي أي الالتزام بالمذهب المالكي وفقهه خصوصاً في منطقة قرطبة، وتزعم صوفية هذا التيار أبي الحسن بن غالب فألف عدة تصانيف في التصوف قال عنها ابن عبد الملك في الذيل والتكملة «له في طريقة التصوف مصنفات لا نظير لها منها كتاب اليقين، وكتاب الاعتبار وكتاب الأيام والحجب»[16].

بينما نجد الغرب يتأرجح بين الالتزام بالتيار التقليدي السلفي، ويمثله أبو محمد بن عبد الغفور[17]، وبين التيار الصوفي الفلسفي المتأثر بالباطنية ويتزعمه ابن قسي[18]. في الوقت الذي كان ابن برجان في إشبيلية يوازن بين هذه التيارات، وذلك بعدم التعمق في الباطنية أو الانتصار السافر للظاهرية الذي يتزعمه الميورقي[19] في غرناطة، يقول ابن الزبير عن ابن برجان «كان متقيداً في نظره بظواهر الكتاب والسنة، برياً من عمق الباطنية، بعيداً عن قحية الظاهرية، شديد التمسك بالكتاب والسنة جارياً في تأويل ذلك على طريقة السلف وعلماء المسلمين وما عليه السواد الأعظم، ثم مبدياً من وجوه التأويل وفهم آيات التنزيل ما يجري مع المعروف، ولا ينافر المألوف من غير تعارض ولا مخالفة»[20].

---

(16) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر 5، قسم 1، رقم 415 ص 209.

(17) ابن الزبير: صلة الصلة، رقم 52 ص 37.

(18) ابن الخطيب: أعمال الإعلام جـ 2 تحقيق ليفي بروفنسال ص 249.

(19) ابن الأبار: المعجم رقم 123، ص 139، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر 6، رقم 452، ص 169.

(20) ابن الزبير: م. س. رقم 45، ص 32.

وقد انتشرت البؤر الصوفية في جل المدن الأندلسية، وكانت الفرق الصوفية تشكل حزاماً يمتد من شرق الأندلس إلى غربها، بينما متدت المراكز الصوفية في المغرب من الجنوب إلى الشمال، وكانت منطقة دكالة وأغمات من أهم مراكز التصوف[21].

وانتشار التصوف خصوصاً في الأندلس كانت نتيجة الانحلال المتأصل، وكرد فعل للتناقضات الموجودة في المجتمع الأندلسي وما فشي فيه من تفسخ ومن تباين اجتماعي واقتصادي، فلجأ البعض إلى العزلة، والانزواء عن هذا المجتمع، واتخذ من التصوف ملاذاً لعله يجد فيه مخرجاً لما يعانيه، فانتشرت الزوايا والربط في أنحاء الغرب الإسلامي، وسموا بالصوفية والمريدين والفقراء.

وقد صور لنا القاضي ابن العربي الحالة المتردية التي يعيشها هذا المجتمع الأندلسي الذي لم يكن إلى إصلاحه من سبيل إلا البعد عنه، والزهد في كل شيء بعد أن أصبحت فيه الحياة شاقة كئيبة بعيدة عن منهاج الشرع وقانون الدين فيقول في كتابه سراج المريدين «وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه، أم على فوات دينه، أم على إخوانه في القربات، أم على أعوانه في الصالحات، أم على دروس العلم وطموسه، أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف، وتعريف المنكر، أم على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة، أم على عرسه التي تطالبه بما ليس به طاقة، أم على ولده

---

(21) انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين.

الذي لا يرى فيه للعين قرة، أم على جاره الذي لا يفضي له على عورة، أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلاً ولا ذمة، أم على فقد صبره الذي يغلبه على الانفراد عن الخلق والاكتفاء بالرب»[22].

ويهاجم ابن العربي الصوفية التي غالت في التعبد وترهبت وتركت النكاح، وعاب عليهم استغراقهم في التأمل والانقطاع عن الحياة، «فهذا ليس من سنن الله في خلقه، ولا ينسجم مع الشرع»، وأنكر عليهم قولهم بالحلول والاتحاد والمشاهدة والعشق وغيرها من هذه المصطلحات التي تتنافى مع الشريعة ولا أساس له فيها، وهاجم طائفة المتصوفة التي يقال لها أصحاب الإشارات التي زعمت أن وراء الآيات القرآنية معاني غامضة خفية، وفي نفس الوقت لم ينكر الزهد، ولم يعرض قراءة المعاني الجميلة التي يقرأها أصحاب الإشارات في ثنايا الآيات القرآنية، وتأثر بتلك المعاني، وكان شرطه أن يؤخذ بالمعنى الأصلي وبالمعنى الذي يقتضيه الوضع اللغوي مع اجتناب الغلو[23].

واختلفت آراء الفقهاء في المتصوفة وكان أكثرها منكراً لها، وعلى رأسهم أبي بكر الطرطوشي والقاضي عياض، وقال عنهم الفقيه الحفار: «إن فسدتهم فشت في الحصون والقرى، واستخلفهم الشيطان لحل عرى الإسلام»[24].

ومن الملاحظ أن عدداً كبيراً من مشايخ الصوفية كان ثرياً

(22) ابن العربي: سراج المريدين، ورقة 75.

(23) ابن العربي: العواصم، تحقيق د. عمار طالبي، ص 211، 261.

(24) الونشريسي: م. س، جـ 11 ص. ص 41، 42، 162، 163.

تصدق بعضهم بجزء من ماله أو بكل ماله، وانعزل في بعض الرباطات واجتمع حوله المريدون، بل وكثر تحبيس أماكن للزوايا أو جنات وعقار للإنفاق على هؤلاء المتصوفة، ولم يتقصر الانخراط على بعض فئات المجتمع، بل إننا نجد بعضاً من أمراء ومشايخ المرابطين ينضمون لهذه الفرق الصوفية[25].

وطريقة هؤلاء الصوفية أو الفقراء كما وصفها ابن سعيد تختلف عن مثيلاتها في المشرق فيصفها بقوله: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل عن الكد، وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية»[26].

فكان لهؤلاء الصوفية عوائد وطرائق ينهجونها خصوصاً في بعض المناسبات الدينية، وبعد صلاة الجمعة يجتمعون في مجلس على شيخ يختارونه هو أقواهم على إذكار الذاكرين، وأكثرهم استنباطاً وفهماً لأداب المريدين، فيجلس الشيخ على يمين الداخل لمجلسهم، ثم يجلسون على حسب تواردهم بعد مصافحة الشيخ، كل منهم يتساوى في ذلك أكبرهم وأصغرهم، ويخرج خديم الشيخ بعد ذلك سبحة منظومة في خيط بها عدد معلوم، قصد به الإحصاء للتسبيحات والتهليلات والضبط ليكون انتهاؤهم في ذلك إلى عدد معلوم، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثم يختمون ذلك بالسلام على

---

(25) التادلي: التشوف رقم 93، ص 238، رقم 105 ص 254، ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1، ص 448، ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 4، ص 79.

(26) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 220.

سائر المرسلين والحمد لله رب العالمين، بعد ذلك يقرأ منشدهم شيئاً من كتاب الله ويختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ فيصلون أيضاً عند ذلك في مرة ويتبعه قارىء آخر، ثم يقرأ الشيخ وطائفة منهم دفعة آيات من القرآن تتضمن طلبهم من الله عز وجل العفو والغفران مثل: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[27]، ﴿رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾[28] ويذكرون بعد ذلك أنواعاً من الأذكار فالدعاء والاستغفار.

وعلى إثر ذلك ينشد منشدهم قصيدة إما في مدح النبي ﷺ وإما في الحض على فعل الخيرات، أو ما يحذرون من الوقوع في الزلات فيوجب سماع ذلك عند بعضهم بكاءً وخضوعاً، ويظهر على ظواهرهم سكوناً وخشوعاً، ويقرأ قارىء آخر كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ﷺ فيسمعون ما يجب له من تعزيز وإعظام، ويقرأ آخر مثله بعض مجالس الواعظين، يذكرون فيها بأخلاق الصالحين وأعمال المجتهدين، ثم يقوم مذكر آخر بإملاء الشيخ بأنواع من التذكيرات وأصناف من حسن المقالات فيصافحونه في تلك الأقوال، ويبنون بمصالح الأعمال. بعدها يحضر خديم الشيخ بأمر منه ما حضر من الطعام فيأكل منه الحاضرون إلا الصوام، ثم يحمل الخديم بقيته لنفسه، ويشاركه فيه من هو مثله من أبناء جنسه وذلك من مال الشيخ وخالص كسبه، ويرتجى بذلك غفران ذنبه، لا يوظف على أحد منهم في ذلك قليلاً ولا كثيراً، بل يحسن إلى الغني منهم، ويقضي مطالبه ويجزل العطاء

(27) سورة الأعراف، آية 23.

(28) سورة المؤمنون، آية 118.

إلى من كان فقيراً منهم، فإذا فرغوا من الأكل حمدوا الله عز وجل وشكروه، وعظموه على إسداء نعمته، ثم يجيء الخديم بإناء فيه من الطيب ما تيسر، فيتطيب الشيخ منه، ثم الذي على يمينه، ثم جميع من حضروهم وفي هذه الأثناء يصلون على النبي الكريم، ويختمون بقراءة سور قصار المفصل إلى إكمال الفاتحة، ثم يقرأون بعض ما ألف في توحيد الله تعالى، ثم يدعو الشيخ بعد ذلك، وعلى دعائه يؤمنون رافعين أكفهم راغبين، ويمسحون بها وجوههم ويصافحون أيضاً شيخهم وينصرفون[29].

ومن السمات البارزة لتصوف هذه المرحلة التفاف العامة حول المتصوفة. فللعامة مفاهيمها الخاصة، ومثلها التي استوحتها من الأفكار الدينية والمفاهيم العامة السائدة في المجتمع والتي كانت تغذيها الطبقة الحاكمة وتشجعها، واستوحتها أيضاً من ظروفها الخاصة وحياتها العملية فمن الدين جاءهم الإيمان بالقضاء والقدر وشرعية الحكم وإطاعة أولي الأمر، والإرادة الإلهية وكثير من مفاهيم الخير والشر، ومن ظروفهم وحياتهم العملية، استفادوا بالخبرة والتجارب التي تعكس في تفكيرهم كثيراً من المفاهيم التي لا تتفق مع المفاهيم التي يوصي بها الدين ومع ذلك فهي تمتزج بنفسياتهم وتلعب دورها في سلوكهم وأخلاقهم، فكان رجل الشارع مثلاً مؤمناً بل يبدو متعصباً أحياناً معتقداً بالقضاء والقدر وبقوة الله وجبروته، ومع ذلك لا يمنعه من الغش والنهب عندما تحين الفرصة، ومن خداع الآخرين في معاملاتهم معهم أحياناً، وكان يستنكر عدم العدالة في الحياة، ولكنه لا يترك

(29) الونشريسي: م. س، جـ 7 ص ص 48، 50.

الفرصة إذا لاحت لاستغلال الاضطراب والفساد، لأن حياته التي يحياها كل يوم تدفعه إلى ذلك. فاهتم المتصوفة بما يكابده الفقراء والمساكين من مشاق في سبيل لقمة العيش، فتصدقوا عليهم بالمال، وحثوا الأغنياء على التصدق والبر بالفقراء والإحسان إليهم[30].

كما انتشرت حركة التصوف كنتيجة لمحاولات مدعي التصوف الطامعين في السلطة وانتحال التصوف أسلوباً لحياتهم، وادعاء الهداية تمويهاً وقناعاً لعملهم السياسي، ولا شك أن حرق كتاب الإحياء للغزالي كان له صلة بموقف الفقهاء تجاه المريدين الذين وجدوا في نشاطهم وتزايدهم خطراً على نفوذهم، فحرضوا أمراء المرابطين على حربه، وشجعوا الحملة على كتب الغزالي خصوصاً الإحياء الذي اتخذه المتصوفة مرشداً.

ونجح ابن تومرت في استغلال هذا التيار الصوفي الذي استقطب واحتوى العامة، فربط حركته بالغزالي، ومزج بين الفكر الصوفي والمهدوية وآمال العامة، وقد حاول ابن قسي نهج طريق ابن تومرت، ولكنه فشل في حركته لأن ابن تومرت لجأ إلى قبائل مصمودة القوية الكثيرة العدد، الناقمة على حكم المرابطين، كما لم ينازعه ثوار آخرون، ولم يتعرض لخطر خارجي (النصارى) مثل الذي واجه ابن قسي[31].

وقد تعاظم نفوذ الصوفية في عهد الموحدين وحاول الطامحون إلى الحكم استثمار الموجة الصوفية خاصة في خلافة أبي يعقوب

---

(30) د. صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس، ص 64.

(31) انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين (ثورة المريدين).

المنصور وابنه الناصر، فادعوا الهداية وهاجموا التباين الاجتماعي والاقتصادي وانحراف الدولة عن تعاليم ابن تومرت وكان على رأس هؤلاء الجزيري وابن الفرس[32]. لذلك لم يحاول الموحدون أخذ موقف عدائي تجاه المتصوفة بل حاولوا أن يغضوا الطرف وألا يصطدموا بزعمائهم محاولين كسبهم إلى جانب الدعوة الموحدية أو على الأقل تحييدهم وعدم إلجائهم إلى اتخاذ موقف معاد.

ونلاحظ انحسار موجة التصوف في ألمرية وأغمات في النصف الثامن من القرن السادس الهجري بينما ازدهرت موجة التصوف وتزايدت في مراكش وفاس، وأزمور[33] خصوصاً بعد سقوط ألمرية في يد النصارى سنة 542هـ واضمحلالها الاقتصادي.

---

(32) ابن سعيد: م. س، جـ 1 رقم 231 ص 323، جـ 2 رقم 421 ص 111، ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 250.

(33) التادلي: التشوف.

المصـادر والمراجـع

- ابن الأبار: المعجم نشر كوديرا، مجريط 1885.
- التادلي: التشوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1984.
- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة 1317هـ.
- الحميدي: جذوة الاقتباس، القاهرة 1952.
- ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة 1977.
- أعمال الأعلام، جـ 2، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت 1956.
- ابن خلدون: المقدمة، جـ 3، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة 1968
- العبر، جـ 6، بيروت 1959.
- ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط 1937.
- ابن سعيد: المغرب تحقيق د. شوقي ضيف، القاهرة 1978.
- د. صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس، بيروت 1965.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة سفر 5، سفر 6 تحقيق د. إحسان عباس.
- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4 تحقيق د. إحسان عباس.

- ابن العربي: سراج المريدين، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 20348 ب.
العواصم من القواصم، تحقيق د. عمار طالبي، الجزائر 1974.
- ابن العريف: محاسن المجالس تحقيق آسين بلاثيوس باريس 1933. مفتاح السعادة مخطوط رقم 1562 بالخزانة العامة بالرباط.
- د. عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين بيروت 1988.
- الغزالي: إحياء علوم الدين.
- د. محمود مكي: التشيع في الأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد سنة 1954.
- المقري: نفح الطيب، جـ 1، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- الونشريسي: المعيار، جـ 7.
— Asin Palacios, Ibn Masarra, y su Escuela de Estudies Arabes, Madrid 1948.
— Ibn Al- Arif, Mahasin Al Magalis, Paris 1933.
— Lagardere, V. «La Tariqua et La Révolte des Muridun en 539 H., 1144 en Andalus» Revue de l'Occident Musulmana, Madrid 1950.
— Urvoy Dominique, Une Etude sociologique des Mouvements Religieux dans l'Espagne Musulmane» Tome VIII Paris, 1972.

عودة ابن تاشفين للمغرب بعد الزلاقة

في اليوم الثالث والعشرين من اكتوبر تكون تسعة قرون قد مرت على انتصار الزلاقة[1] إذ أنها وقعت في يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/ 23 اكتوبر 1086م، وعند ذكر الزلاقة تجيش في النفس أمارات الفخر والاعتزاز، وتعاودنا ذكريات انتصارات المسلمين الأوائل في اليرموك والقادسية وغيرها من المعارك الإسلامية الحاسمة ونشعر بغصة الألم لحال العرب المسلمين الذين يشبهون أهل الأندلس قبل زلاقة ابن تاشفين.

بعد انتصار يوسف بن تاشفين من الزلاقة يعود سريعاً إلى

(1) سميت الزلاقة لأنها جرت بمكان يسمى بهذا الاسم، وتسميه المصادر المسيحية ساكرا لياس Sacra Lias ويعرف اليوم باسم ساجرا جاس Sagrajas بالقرب من مدينة بطليوس.

عن معركة الزلاقة انظر:

عبد الله بن بلقين: البيان ص. ص 104 :110، الحلل الموشية: ص. ص 38 :66، المراكشي: المعجب ص. ص 130، 135، الحميري: الروض، مادة زلاقة.

ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 144 :149.

ابن خلدون: العبر، ص 6، ص 383.

المغرب دون متابعة فلول المنهزمين. وهنا تقفز عدة تساؤلات، لماذا لم ينتهز فرصة انتصاره الساحق ليتتبع ألفونسو المثخن بجراحه وهزيمته ويستعيد طليطلة؟ ولماذا عودته السريعة إلى المغرب؟.

لا شك أن المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين قد تحملوا عبء مواجهة جيوش ألفونس بعد ما ظهر ضعف الأندلسيين وانقسامهم، ولا شك أن البطل القائد الذي بلغ التاسعة والسبعين وهو يصول ويجول بين قواته يرى بعين الشيخ المجرب الذي عركته الحروب مبلغ الخسائر والتضحيات التي مني بها الأندلسيون والمرابطون، ويلمس الفرقة المتفشية بين أمراء الأندلس التي لم ينسوها حتى في ساعة المحنة، جعلته يشعر أنه من الحكمة توحيد الصفوف أولاً قبل القيام بأي عمل، خصوصاً أنه تأكد أن عبء أي معركة قادمة سوف تقع على كاهل جنوده، لذلك رأى ألا يجازف قبل الاستعداد وتأمين خطوط إمداداته بالمغرب، فقد ذكر أنه كان يحارب في الأندلس وهو مشغول الفكر لما يجري في المغرب في غيابه، ويشير الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة[2] إلى أن يوسف «تلقى وهو ببطليوس أنباء من المغرب شغلت عقله، واضطرب لها فؤاده، وأنه لولا ذلك لكان في أرض النصارى مدوخاً لها».

أقلق الأمير يوسف بن تاشفين أخبار هجوم صاحب قلعة بني حماد على المغرب مستعيناً بقبائل الأعراب من بني هلال، منتهزاً فرصة غياب الأمير يوسف ومعظم قوات المرابطين بالأندلس،

---

(2) عبد الله بن بلقين: م. س. ص. ص 338، 339.

وانشغالهم بحرب ألفونسو، فلذلك عندما انتهى ابن تاشفين من الزلاقة سارع بالعودة إلى المغرب لمواجهة أحداثه أولاً قبل الإقدام على أي عمل خارجه، وأرسل رسالة[3] إلى صاحب القلعة يؤنبه فيها ويوبخه على استعانته «بذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب» باذلاً لهم المال الكثير والعطايا، ولولا ما فعله صاحب قلعة بني حماد أثناء جهاد يوسف بن تاشفين لاستطاع تتبع ألفونسو، والقضاء على ما تبقّى من فلوله، واستعاد ما أخذه من أراضي المسلمين. إذ يقول له: «ونحن أثناء ما فعلت وخلال ما عقدت وحللت، نؤم العدو ـ قصمه الله ـ فنجبهه ونكافحه، فنقدعه ونناطحه، ونتحيفه من أقطاره، ونغزوه بدءاً وتعقيباً في عقر داره، ولولا ماؤك الذي ثمدوه، وشارفوا إلى أن يستنفدوه، ما أَوَوْا لشكواك، ولزادوك ضغثاً على إِبَّاله بلواك، وإنك لمتداو منهم بسم، ومستريح إلى غم، فبلغت معهم ما بلغت، وأَرَغْتَ بهم ما أرغت، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنقه وأضفنا أنشوطة وهق الخزي على عنقه، وأشفى على انقطاع ذمائه ورمقه، ففرجت عنه كربة لم يظنها تنفرج، ونهجت له منها وجه مَخْلَص لم يحسبه يُنتهج، وأخليت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده، وبسطت فيهم يده».

ولقد حمل الأمير يوسف بن تاشفين صاحب قلعة بني حماد مسؤولية ما حدث من انتهاك للحرمات وسفك لدماء المسلمين

---

(3) من رسالة كتبها ابن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد.

انظر: ابن بسام: الذخيرة القسم الثاني، مجلد 2، ص 257.

وتوعده، «وكل ما سفك من دم، وانتهك من محرم، واستهلك من ذمم، فإليك منسوب، وعليك محسـوب، وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غداً، وإنه لقريب»[4].

وهناك سبب آخر لعودة الأمير يوسف بن تاشفين ولا يقل أهمية على سابقه وهو وفاة ابنه وولي عهده الأمير أبي بكر، إذ يذكر صاحب الحلل الموشية[5] أن الأمير يوسف بن تاشفين، لما فرغ من موقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورد عليه خطب أوجعه، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير، فتعجل إيابه من العدوة، وصدره، وقد قضى في عدو الملة وطره».

ويؤكد الضبي[6] سبب تعجل يوسف بن تاشفين للعودة هو تلقيه خبر وفاة أكبر بنيه وهو بمدينة بطليوس.

كان الأمير يوسف قد ترك ابنه وولي عهده أبا بكر مريضاً بسبتة، لذلك فقد أسرع بالعودة خوفاً من اضطراب الأمور في غيابه، ويبدو أنه حدثت بعض الاضطرابات من بعض الأمراء بالمغرب الذين انتهزوا فرصة غيابه وموت ولي العهد، ويتضح ذلك بما ذكره ابن أبي زرع[7] من أن يوسف بن تاشفين خرج في ربيع الآخر عام 480هـ/ 1086م يطوف على بلاد المغرب، ويتفقد أحوال الرعية، وينظر في أمور المسلمين، ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته.

---

(4) ابن بسـام: م. س. ص. ص 259، 260.

(5) الحلل الموشية: ص 66.

(6) الضبي: بغية الملتمس، ص 13.

(7) ابن أبي زرع: م. س. ص 152.

ويرى الدكتور حسن محمود[8] أن عـودة الأمير يـوسف بن تاشفين إلى المغرب إنما كانت بسبب موت الأمير أبي بكر بن عمر، وليس أبا بكر بن يوسف، ولكن موقعة الزلاقة كانت في رجب 479هـ واستشهاد الأمير أبي بكر بن عمر في شعبان 480هـ، لذلك نرجح سرعة عودة يوسف إلى المغرب بسبب وفاة ابنه وولي عهده فعلاً، وخوف يوسف من تحرك بعض أمراء المرابطين خاصة الأمير أبو بكر بن عمر نفسه، ويدل على ذلك أن يوسف لم يجز إلى الأندلس جوازه الثاني لمواصلة الجهاد إلا في عام 481هـ/ 1088م أي بعد وفاة أبي بكر بن عمر واستتباب الأوضاع له[9].

كانت أولى المشاكل التي قابلت يوسف بن تاشفين بعد وفاة الأمير أبي بكر بن عمر، تحرك الأمير إبراهيم بن أبي بكر بن عمر إلى الشمال، فقد وصل من الصحراء، يطلب ملك أبيه، ونزل بخارج أغمات في جموع كبيرة من لمتونة، فلما سمع الأمير يوسف بن تاشفين بذلك بعث إليه الأمير مزدلي[10] وكان حسن

(8) د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص 286.

(9) عبد الله بن بلقين: م. س. ص 110، الحلل الموشية، ص 66 ابن أبي زرع: م. س. ص 152، ابن أبي دينار: المؤنس من أخبار إفريقية والمغرب، ص 105.

(10) الأمير مزدلي هو ابن عمّ الأمير يوسف بن تاشفين، قدمه على رأس جيش كبير توجه لمدينة تلمسان ففتحها دون قتال، واعتمد عليه يوسف بن تاشفين في كثير من الأعمال في الأندلس وكان مثالاً للمحارب الشجاع الذي قضى عمره في معركة دائمة ودفع حياته ثمناً لجرأته وبسالته، وكان حسن السياسة عارفاً بخدمة الملوك.

ابن عذاري: م. س. ص 29.

السياسة، فهدن الأمير إبراهيم بن أبي بكر، ونصحه بقوله: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلاً فاطلب منه (يوسف بن تاشفين) أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك، وإن طلبت غير هذا، أخاف أن يجعل على رجلك قيداً، ويحبسك عنده عبداً، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك[11].

اقتنع الأمير إبراهيم بن أبي بكر بهذه النصيحة التي تتضمن في طياتها التهديد باستعمال القوة، فآثر إبراهيم عدم الدخول في صراع مع الأمير يوسف بن تاشفين، خوفاً من قوته، ولذا آثر السلامة والتمس بعض المساعدات المالية، ويدل على هذا حديثه مع الأمير مزدلي إذ قال له: «عسى أن تجتمع معه (يوسف بن تاشفين) مرة أخرى، وتبين له حالي[12].

مما جعل الأمير مزدلي يقتنع أن حركة الأمير إبراهيم بن أبي بكر يمكن حلها بتقديم المال والهدايا إليه، وأنها ليست من القوة بحيث تقف في وجه يوسف بن تاشفين، لذلك طلب منه الانتظار في موضعه. حتى يبلغ الأمير يوسف ويأتيه بما يرضيه، واستطاع الأمير مزدلي أن يحصل له على مال وخيل وكسى وغير ذلك من الهدايا، وانصرف الأمير إبراهيم إلى الصحراء، وبقي بها حتى مات دون أن يجتمع بالأمير يوسف[13].

ويبدو أن الأمير يوسف بن تاشفين كان يدرك عدم خطورة

---

(11) ن. م.

(12) ن. م. ص 30.

(13) ن. م.

الأمير إبراهيم، فلم يحرص على لقائه، كما فعل مع أبيه الأمير أبي بكر بن عمر من قبل، ورأى أنه من الأوفق استمالته بالمال، والاعتماد عليه في الصحراء.

لم تكن مشكلة تحرك الإمير إبراهيم بن أبي بكر هي الوحيدة التي قابلت الأمير يوسف بن تاشفين بعد عودته من الأندلس، فقد انتهزت بلاد السودان فرصة استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر(14) واضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد موت قائدها وترك الأمير إبراهيم الصحراء إلى أغمات، فأعلنت غانة استقلالها، وانفصالها عن الدولة المرابطية، ونقضت تبعيتها لها(15).

وفي نفس الوقت استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لامبراطورية غانة(16) أن تنفصل هي الأخرى عنها، وتستقل في حكمها، وكانت أولاها مملكة أنبارة Anbara ثم تبعتها ولايات ديارا Diara وكانياجا Kaniaga، وأصبحت ممالك مستقلة، بينما

---

(14) عن استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر انظر:
د. عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص 17، 118.

(15) Addison, John, «Ancrient Africa, P. 45» Awe, Bolanle, «Empires of Western Sudan, P. 615, Cardot, Véra, Belles pages de l'histoire Africaine, P. 24.

Fage, J. D, «An introduction to the history of West Africa, P. 21 x Jullien, Ch, André, Histoire de l'Afrique, P. 54.

(16) كان الأمير أبو بكر بن عمر قد سمح لملك غانة أن يستمر في حكمه تابعاً للمرابطين انظر د. عصمت دندش: م. س. ص 115 وما بعدها.

أصبحت سلطة ملوك سوننكي غانة، لا تتعدى أوكار Aukar، والباسيكوني Bassikunu[17].

ولقد لعب الفلاني المهاجرون من مملكة التكرور دوراً كبيراً في تكوين الأسرة الحاكمة في كانياجا المستقلة، إذ استطاع بعض أفراد من قبيلة الصو Su، إحدى قبائل الفولاني، أن تستولي على مقاليد الحكم في كانياجا، وتعلن تكوين مملكة كانياجا التي أخذت تتوسع وتستولي على بعض المناطق المجاورة لها، حتى استطاعت أن تضم إليها ولاية ديارا Diara في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وأطلقت على أملاكها هذه اسم امبراطورية الصوصو Susu[18].

كان لهذه الأحداث في الجنوب أصداؤها في الشمال، فترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أمر الأندلس لبعض الوقت، حتى يستطيع أن يعيد إلى المغرب والسودان استقراره، ويقضي على هذه الحركات الانفصالية، فقد كان حريصاً على استمرار تدفق الملثمين، من الجنوب، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الجنوب بما فيه السودان في حالة استقرار، وعلى هذا أرسل الأمير يوسف بن تاشفين الجيوش لتأديب العصاة وإعادة الأمور إلى نصابها وقد نجحت الجيوش المرابطية في إخماد هذه الثورات والقضاء على زعماء الفتنة أو المتمردين من الأهالي[19].

---

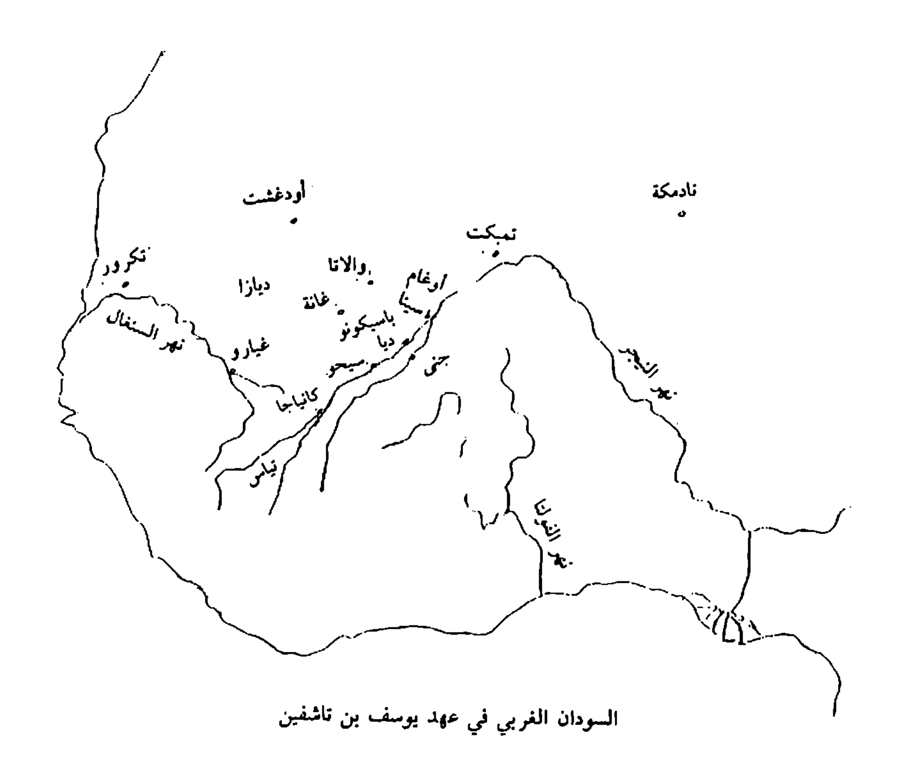
(17) Cornevin, Robert, Histoire de l'afrique d'origines au XVI siécle, Tome 1, P. 347 Fage, J.D., op cit. p. 27.

وانظر الخريطة:

(18) Corsrevin, Robert, op cit p. 347.

Anta Diob, LAfrique Noire Précolonial, P. 69.

(19) Cornevin, op. cit X fage op. cit.



السودان الغربي في عهد يوسف بن تاشفين

وبذلك عاد الهدوء مرة أخرى إلى الصحراء، ورجعت غانة لتبعية المرابطين، ويظهر ذلك من الرسالة التي حملها القاضي أبو محمد بن العربي المعافري الأندلسي قاضي إشبيلية، وابنه أبو بكر إلى الخليفة العباسي في بغداد، إذ أنه أشار إلى أن سلطان يوسف بن تاشفين امتد إلى الجنوب مما يلي بلاد غانة، وهي بلاد معادن الذهب[20].

وأشار صاحب كتاب الاستبصار[21] إلى أنه وقع في يده كتاب موجه من ملك غانة إلى الأمير يوسف بن تاشفين، ومع أنه لم يشر إلى مضمون هذا الكتاب إلا أنه يدل على استمرار صلة غانة وتبعيتها للمرابطين.

كما أن الأمير يحيى بن أبي بكر بن عمر[22] كان موجوداً في منطقة السودان يجاهد بها كما أشار إلى ذلك صاحب الحلل الموشية[23]، ولم ينقصه لإخماد هذه الثورات إلا المال والإمداد،

---

(20) انظر مخطوط رقم د. 1020 بدار الوثائق بالرباط تحت اسم رحلة أبي بكر بن العربي نشرتها تحت عنوان دراسة حول رسائل أبي بكر بن العربي في مجلة المناهل عدد 9 سنة 1977.
ابن أبي زرع: م. س. ص. ص 136، 157.

(21) الاستبصار، ص 215.

(22) كان للأمير أبي بكر بن عمر ولدان: إبراهيم، ويحيى، ويعرف يحيى بأبي زكريا، وابن عايشة كان والياً على سجلماسة، وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين 500 هـ/ 1106 م سارع بمبايعة الأمير علي بن يوسف الذي عينه والياً على فاس، تصمت المصادر بعد ذلك عن أخباره فلا نعرف عنه شيئاً. ابن عذاري: م. س. ص. ص 17، 48.

(23) في نسخة الحلل الموشية المطبوعة في تونس 1913 نجد أن الأمير أبا =

وهذا ما حصل عليه أخوه إبراهيم من الأمير يوسف بن تاشفين، ومما يرجح هذا الرأي سرعة عودة الأمير إبراهيم إلى الصحراء واقتناعه السريع بكلام الأمير مزدلي بالعودة.

ولم تكن ثورات السودان ارتداداً عن الإسلام ويبدو أنها رغبة في الاستقلال السياسي، بدليل أنه بعد سقوط غانة ازداد عدد الداخلين في الإسلام[24]، فكانت سرعة عودة الأمير يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة وتعجله لها هو رغبته في الحفاظ على وحدة المغـرب والسـودان، والاطمئنـان على استتبـاب الأمن في الصحراء، واتفاق قبائلها، فهم أصل أعياصهم ومصدر إمدادهم من الجند المجاهد، قبل أن يغامر بأي جهاد في الأندلس.

= زكريا يحيى بن أبي بكر عمر استمر في جهاد السودان 449 ولكن في النسخة المحققة من الدكتور سهيل زاكار والأستاذ زمامة نجد يحيى هو أخو الأمير أبي بكر بن عمر وهذا خطأ لأن الأمير يحيى بن عمر توفي آخر عام 447 أو أواخر 449هـ انظر: الحلل الموشية ط تونس ص 7، ط الدار البيضاء 1972 ص 17. عن سنة وفاة يحيى بن عمر انظر: ابن أبي زرع: ص 128، والحلل الموشية ص 23 وابن عذاري: م. س. ص 14.

(24) د. عصمت دندش: م. س. ص 115 وما بعدها.

تعقيب علـى:

عودة ابن تاشفين إلى المغرب بعد الزلاقـة

السيدة الزميلة عصمت دندش.

تحيـة تقديـر ووّد.

وبعد، فقد قرأت في العدد السابق من مجلة دعوة الحق رقم 262، جمادى الأولى والثانية 1407 = يناير - يبراير 1987.

وقد استوقفتني فيه فقرة تتعلّق بالأسباب التي حدت بالسلطان يوسف بن تاشفين للتعجيل بالعودة إلى ديار المغرب في أعقاب وقعة الزلاّقة...

فعلاوة على الأسباب التي رددها المؤرخون الذين تناولوا هذه الفترة من عهد المرابطين والتي كانت - على ما يذكرون - ترجع لأسباب عاطفية: رزء العاهل المرابطي في أحد أبنائه... علاوة على ذلك قدمتم لنا سبباً آخر... كان يتخلص في تحرك صاحب قلعة بني حماد (الجزائر) ضد المغرب مغتنماً فرصة غياب ابن تاشفين في الأندلس...

وقد وجدتم في رسالةٍ وجهها ابن تاشفين إلى صاحب القلعة وأوردها ابن بسام في الذخيرة، وجدتم فيها ما يعزّز تلك الأطروحة المبتكرة... التي تقول: إن يوسف بن تاشفين عجّل بالعودة لمواجهة صاحب القلعة...

وأريد في هذا الموضوع ـ وأنا أقدر جهدكم ـ أن أذكركم ببعض المصادر والمراجع التي لا تسمح، في نظري، بما استنتجتموه وما ذهبتم إليه. . .

إن الرسالة التي كتبها ذو الوزارتين ابن القصيرة (وليس ابن الجد كما قلتم) عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت بعد مرور فترة على عودة ابن تاشفين. . .

وهي تشير لبعض الاحتكاكات التي كانت تواجه بين الناصر بن علناس وبين ابن عمه الأمير تميم بن المعز، مما أفاض فيه المؤرخون سواء منهم القدامى أو المعاصرون. . .

ولعل في ورود اسم أبي عبد الله محمد بن يوسف في رسالة ابن بسام، بل لعل في ورود اسم صاحب رومة أثناء الرسالة ما يدفع بكم إلى المزيد من البحث عن الظروف الحقيقية التي تم فيها تحرير الخطاب المذكور، سيما وأنتم أقرب إلى الخزانة الأندلسية الحيّة!.

وأرجو، بهذه المناسبة، أن أذكركم بما أوردته في المجلد الخامس من كتاب «**التاريخ الدّبلوماسي للمغرب**» عند الحديث عن العلاقات بين المرابطين والحماديين. . . فهناك يمكن لكم أن تقفوا على نص وصورة الوثيقة التي تأتي بفحوى الرسالة الموجهة من لدن البابا كَريكَوار إلى صاحب قلعة حماد: الناصر بن علناس وكلها إطراء وثناء على موالاته. . . أو بعبارة أخرى على معاداته للأمير تميم بن المعز الذي كان يضايق النصرانية على سواحل صقلية بمساعدة من المرابطين. . .

إنني أعتقد أن الربط بين الرسالتين، رسالة ملك المغرب،

ورسالة البابا ضروري لمحاولة الوصول إلى الحقيقة. . .

وهكذا يظهر أن سخط المرابطين على الناصر بن علناس كان بسبب موالاته لملك روما ومعاداته لتميم بن المعز. . . ولهذا فقد وجدنا يوسف بن تاشفين يقوم، فور وفاة الناصر، بربط الصّلة مع ولده المنصور على ما نقرأه في تاريخ ابن الأثير. . .

وملخص كلّ هذا أن سبب تعجيل السلطان يوسف بن تاشفين بالعودة على ما يبدو عائلي وليس بسياسي.

هكذا أرى، لكني ما أزال بحاجة إلى من ينير طريقي حول هذا الموضوع الدقيق الذي سبق لي أن أثرته علانية في تدخلي أثناء اللقاء الدولي الذي تم أخيراً بالمغرب (أول أبريل 1987) حول «الوثائق الدبلوماسية للمغرب كمصدر من مصادر تاريخ إفريقيا. . .».

وتقبلوا احتراماتي.

د. عبد الهادي التازي

عـــودة
لعـــودة يوسـف بـن تاشـفين

أثار مقال «عودة يوسف بن تاشفين» في العدد الماضي من مجلة دعوة الحق العديد من التساؤلات والاستفسارات، مما دعاني إلى معاودة البحث بعمق أكثـر في بعض النقاط التي أثيرت، ومع أني وضحت بعضاً منها خلال بعض المكالمات الهاتفية أو مباشرة في الكلية، فإني وجدت أن تكون الفائدة عامة خصوصاً بعد أن توصلت برسالة من أستاذنا العلامة الدكتور عبد الهادي التازي، والتي طرح فيها أكثر من علامة استفهام، فرأيت أنه من الواجب علي أن أعاود القراءة والبحث حتى أستفيد أكثر من الاستفسارات التي أثيرت، ويستفيد معي من يهمه أمر هذا أمر الموضوع.

ونظراً لضيق الوقت لكتابة مقال آخر مفصل فسأكتفي بالإجابة على بعض التساؤلات، على أن أنشر رسالة يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد في عدد تالٍ إن شاء الله، محققة ومعززة بشيء من الدراسة، وسأقتصر في هذه السطور على تركيز الضـوء على بعضِ الأَحـداث التي أراهـا ـ حسب معلومـاتي المتواضعة ـ من الأهمية بمكان. وأرجو ممن يرى إضافة شيء إلى هذا الموضوع أن يدلي بدلوه، حتى تكون الفائدة عامة، وفوق كل ذي علم عليم.

من الملاحظ أن يوسف بن تاشفين لم يعبر إلى الأندلس إلا بعد إلحاح متواصل من قبل أمراء وفقهاء الأندلس، وكان رده على وفودهم حتى يوحد بلاده ويستكمل هذه الوحدة بفتح سبتة وطنجة[1].

فالأوضاع في العدوة لم تكن توحي بالاطمئنان، كما أن الأوضاع في منطقة البحر المتوسط عامة لا تبشر بخير.

وسوف أستعرض باختصار بعضاً من هذه الأمور، بالإضافة إلى ما سبق أن ذكر في المقال السابق.

إن ترجيح رجوع الأمير يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة لأسباب عائلية يكون فيه بعض التحفظ خصوصاً بالنسبة للأمير يوسف الذي كان يرى في الجهاد ووحدة البلاد ومحاربة البدع الهدف الأول.

يبدو لي أن وفاة ابنه الأمير أبي بكر بمدينة سبتة كان يشكل خطورة كبيرة على وجود المرابطين بها، فلم يكن قد مضى على فتحها سوى عامين، ولا شك أن أنصار الحموديين الأدارسة[2]،

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 142 ط، دار المنصور 1973، ابن بسام: الذخيرة، قسم 2، مجلد 2، (653 - 656) تحقيق د. إحسان عباس، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، (261 -264) وعن فتح سبتة، ذكر ابن أبي زرع أنها فتحت في ربيع الأول 477هـ يوليه 1084 (روض القرطاس، ص 144) بينما ذكر ابن خلدون: العبر، ص 6، ص 456 أنها فتحت عامم 476 (ط بيروت 1959)، ابن بسام: م. س. (660 -663).

(2) عن بني حمود انظر، المراكشي: المعجب، ص. ص 43 -69، ابن =

وسقوت البرغواطي والموجودين على الخصوص في منطقة غمارة، كان يعاودهم الأمل في الرجوع إلى سبتة...

وهذا معناه لو نجحوا في قطع خط الرجعة على الأمير يوسف بن تاشفين، والسيطرة على المجاز «مضيق جبل طارق» وقطع خطوط إمداداته لقضي على المرابطين، ومما يعزز هذا الرأي أنهم وحدوا صفوفهم مرة أخرى عندما ظهر أمر الموحدين فانضموا إليهم لحصار سبتة من عام 537 هـ/ 1142 م[3].

أما بالنسبة لبني حماد «الإخوة الأعداء» فد تعددت اعتداءاتهم منذ بداية حركة المرابطين[4]، وكان لا بد لتوحيد المغرب وإصلاح أحواله القضاء على أمراء زناتة الذين استبد كل واحد منهم بمدينة، ونجح يوسف بن تاشفين في ذلك، ولكن كان عليه

= خلدون: م. س. ص. ص 455 -460، الحميدي، جذوة الاقتباس، ص. ص 21 -24.

(3) يقول ابن خلدون: «ولما لمع نجم المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكة تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى لفتح المغرب سني سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراكش، فوحدوا صفوفهم واتبعوا أمره ونازلوا سبتة في عساكره، وامتنعت عليهم وتولى كبر امتناعها قاضيهم الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوته وعمله ومنصبه، ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين، فكان لغمارة هؤلاء السابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة، ابن خلدون: م. س. ص 548.

(4) بعد فتح فاس عام 453هـ/ 1061م هاجم بلقين بن محمد بن حماد فاس، انظر ابن الخطيب أعمال الإعلام، ص 3 تحقيق د. أحمد مختار العبادي، وإبراهيم الكتاني ص 87.

ابن خلدون، م. س. ص 355، 377.

لكي يستتب له الأمر أن يقضي على فلول زناتة التي تجمعت في المغرب الشرقي، فاستولى على تلمسان، ووهران وجبال ونشريس وأعمال شلف إلى الجزائر في نهاية عام 474هـ/ 1081م[5] وعندها توقفت جيوش المرابطين. إذ كان هدف يوسف بن تاشفين القضاء على فلول زناتة أو المقاومة الزناتية، ولم يكن هدفه التوغل لأكثر من ذلك، أو الصدام مع أبناء عمومتهم بني حماد الصنهاجيين. ولو كان هدفه الاستيلاء على قلعة بن حماد لأمكنه ذلك، فالبلاد في هذه الفترة كانت ممزقة أصابها عرب بني هلال بأضرار جسيمة، لذلك عندما توقف المرابطُون بعد فتح تلمسان ووهران ولم يجاوزوها، لم يكن خوفاً من فتح ما يليها وإنما إبقاء على صلات القربى بينهم[6].

والغريب أن العلاقة كانت طيبة بين أبناء العم الزيريين[7] في إفريقية بعكس العلاقة مع أبناء عمومتهم الحماديين التي اتسمت في أغلب مراحلها بالتوتر الذي يصل في كثير من الأحيان إلى الحرب، وعلى أية حال فسوف أتعرض لهذه العلاقة بالتفصيل من خلال تحقيق ودراسة رسالة الأمير يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد.

---

(5) ابن أبي زرع، م. س. ص 143.

(6) د. حسن محمود؛ قيام دولة المرابطين، ص 205.

(7) بعد انتصار يوسف بن تاشفين في الزلاقة أرسل كتباً إلى بلاد المغرب وإلى تميم بن المعز صاحب إفريقية، ولم يرسل إلى الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد.
ابن أبي زرع: م. س. ص 149.

أما على صعيد الدول النصرانية، ففي هذه الفترة كانت البابوية قد استعادت نفوذها القديم وبسطت سيطرتها على ملوك أوروبا وشعوبها، وصارت تحرض على المسلمين وتعد لحرب صليبية طويلة المدى، فوجهت ملوك أوروبا إلى المشرق للاستيلاء على بيت المقدس وغيره من مدن وحصون المسلمين[8].

ووكلت البابوية لملوك إسبانيا مهمة طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبرية وإنهاء حكم الإسلام بها، وساعدتها الظروف على نجاح مهمتها، بسبب الفرقة والتطاحن والتنافس بين زعماء لا يقدرون المسؤولية ولا يفيقون لهذا المخطط سواء في الغرب الإسلامي أو المشرق، فالذي لم تنجح فيه عسكرياً، نجحت فيه سياسياً عن طريق «فرق تسد»، أو عن طريق الصداقة الوهمية المزيفة لهذا الفريق أو ذاك.

وتهاوت المدن والقلاع الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولا نجد في تعقيب المؤرخين وغيرهم ممن لا حول له ولا قوة غير عبارة «أعادها الله» وهم يعلمون حق العلم أنها لن تعود؛ لأن الحق سبحانه لا يعيد النعمة إلا لمن يستطيع الذود عنها، والحفاظ عليها.

وقويت في هذه الفترة أيضاً جمهوريات جنوب إيطاليا مثل جنوة والبندقية وبيزا وغيرها، واستطاعت أن تعزز بسلطانها التجاري والبحري فنازعت المسلمين السيادة البحرية في البحر المتوسط، وأتاحت فرقة المسلمين في جزيرة صقلية الفرصة لتدخل النورمان الذين كانوا قد استولوا على بعض المناطق في

(8) عن الحروب الصليبية انظر د. سعيد عاشور: الحروب الصليبية.

جنوب إيطاليا واستقروا فيها، فاستدعاهم بعض المنتزين في مدن صقلية، فاستولى النورمان على مدنها الواحدة تلو الأخرى حتى تم لهم الاستيلاء على كل الجزيرة عام 484هـ/ 1091م منتهزين الصراع بين الحماديين وأبناء عمومتهم الزيريين[9].

وتوزعت الصداقة المزيفة لنصارى البحر المتوسط بين أبناء العم أصحاب القلعة، وأصحاب المهدية، البابوية وجنوة وبيزا وأمالفي في ناحية بني حماد بينما أظهر روجار النورماندي الذي تم له الاستيلاء على صقلية المودة للإمير تميم بن المعز، إذ كان روجار يعمل حساباً للعلاقة التي بين المرابطين وأمراء إفريقية، فلم يستطع الاستيلاء على المهدية إلا عام 543هـ/ 1148م بعد سقوط المرابطين[10].

ويبدو موقف روجر تجاه الأمير تميم بن المعز عندما هاجمت أساطيل جنوة وبيزا وأمالفي المهدية وزويلة سنة 480هـ/ 1087م لتحطيم القوة البحرية للزيريين في غياب تميم بن المعز عنهما، ولم يشترك النورمان في هذا الهجوم ورفض روجار المساعدة التي عرضوها عليه حتى يستطيعوا النجاح في مهمتهم، فلما رفض حرصاً على علاقته بالأمير تميم اضطر المسيحيون الغزاة للإنسحاب مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار[11].

ويذكر ابن الأثير[12] أن روجار رفض مهاجمة إفريقية حتى «لا

---

(9) عن صقلية انظر د. تقي الدين عارف الدوري: صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط، العراق 1980.

(10) ن. م.

(11) ابن خلدون: م. س. ص 328.

(12) ابن الأثير: الكامل، ص 8، ص 185.

يقول تميم غدرت بي، ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا، وإفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود».

وبعد هذا العرض المختصر لوضعية المنطقة قبيل الزلاقة وبعدها بشهور، أتساءل هل الأمير يوسف بن تاشفين الرجل المحنك الذكي كان يجهل هذه الأوضاع؟ أعتقد أنه كان يعلم بكافة هذه الظروف، ولا شك أنه كان يرصد حركة المدن التجارية التي تهدد البحرية الإسلامية، وتنوي الإجهاز على أسطول الزيريين وإلحاق ضربة قاصمة به.

فعذراً أستاذي الجليل لست معك في أنها أسباب عاطفية عائلية، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين خرج مع المرابطين قصد الجهاد، ومصالح الجماعة الإسلامية فوق العواطف الشخصية، ومعذرة لعدم حضوري اللقاء حول المصادر العربية لتاريخ إفريقيا، فلا شك أنه تقصير مني كان يمكنني أن أستفيد منه.

أما الإخوة الذين تساءلوا عن فائدة الخريطة[13] الملحقة بالمقال فلبيان المدن التي كانت خاضعة للمرابطين في السودان والتي ذكرت في سياق المقال.

وأخيراً أرجو أن أكون وفقت لتوضيح بعض ما أثير من تساؤلات على أن استكمل هذا الموضوع في عدد قادم إن شاء الله.

---

(13) الخريطة مصدرها كتابنا «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا» وهو تحت الطبع، وأصل الكتاب رسالة ماجستير قدمت لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة عام 1974.

رسالة يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد[1]

ورد كتابكُ الذي أنْفَـذْتَـه من وادي منى[2] مُنْصَـرَفَكَ من الوجهة التي استظهرتَ عليها بأضدادِك، وأجْحَفْتَ فيها بطارفك وتلادِكَ، واخفقت من مَطْلَبك ومرادك، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرَّح به والمشار إليه فيه، ووجدناك تتجنى وَتُتَرِّب على مَنْ لم يستوجب التثريبَ، وتجعـل سيِّئكَ حَسَنـاً، وَمُنْكَرَكَ معـروفاً، وخطأكَ صواباً بيِّناً، وتقضي لنفسك بفَلَجِ الخصامِ، وتوليها الحجَّةَ البالغةَ في جميع الأحكام، ولم تتأوَّل أنَّ وراءَ كلِّ حُجَّةٍ أدْلَيْتَها ما يَدْحَضها، وإزاءَ كلِّ دعوى أبْرَمْتَها ما يَنْقُضها، وتلقاءَ كلِّ شكوى صَحَّحْتَها ما يُمَرِّضها، ولولا استنكاف الجدال، واجتناب تردُّدِ القيلِ والقال، لَنَصَصْنا فصولَ كتـابك أوَّلاً فـأوَّلاً، وتقرَّينـاها تفاصيلَ وَجُمَلاً، وأضفنا إلى كلِّ فصلٍ ما يُبْطله، ويُخْجل من ينتحله، حتى لا يدفعَ لصحّتهِ دافع، ولاَ ينبو عن قَبُولِ أدِلّتِهِ راءٍ ولا سامع، ولا يختلف اعترافاً به دانٍ ولا شاسع.

وفي فصل منها: وننشُدكَ الله الذي ما تقوم السّماء والأرض إلاَّ بأمرِهِ، ألم نكنْ عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله

---

(1) من الذخيرة، القسم الثاني، مجلد 2، ص 257.

(2) وادي منى من أحواز طنجة (روض القرطاس، ص 143).

محمد بن يوسف، رحمه الله، وتفاقم الشنآن، قد توفّرنا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عمّا كانتْ النصبة تستقدم إليه من بدارٍ أو سباق، ولم نَمُدَّ الجهةَ حقَّ إمدادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهيرِ أعدادِها، ولا عَدَلْنا عن جهادِ المشركين، ولا أقْبَلْنا إلاّ على ما يحوط حريمَ المسلمين، رجاءَ أن يثوب استبصار، أو يقعَ إقصار؛ وأنت خلالَ ذلك تحتفل وتَحْشِد، وتقوم بحميّةٍ وتقعد، وتبرق غضباً وترعد، وتستدعي ذؤبانَ العرب وصعاليكهم من مُبْتَعِدٍ ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافاً، وتنفق عليهم ما كَنَزَه أوائلك إسرافاً، وتمنح أهلَ العشرات مئين وأهلَ المئين آلافاً، كلّ ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصّبهم لكَ وتألُّبِهِمْ، وتعتقد أنهم جُنّتكَ من المحاذير، وحماك دون المقادير، وتذهلُ عمّا في الغيب من أحكام العزيز القدير.

ونحن أثناءَ ما فعلتَ، وخلال ما عقدت وحللت، نؤمُّ العدوَّ ـ قصمه الله ـ فنجبهه ونكافحه، فنقدعه ونناطحه، ونتحيَّفُهُ من أقطاره، ونغزوه بدءاً وتعقيباً في عُقْر داره، إلى أن استجمعْتَ أخيراً واستجشْتَ، وترجّعْت إلى عرفانك وأجهشت، ولولا ماؤكَ الذي ثَمّدوه، وشارفوا إلى أن يستنفدوه، ما أَوَوْا لشكواك، ولزادوك ضغثاً، على إبّالة بلواك، وإنك لمتداوٍ منهم بسمٍ، ومستريح إلى غمّ، فبلغت معهم ما بلغتَ، وأرغْتَ بهم ما أرغت، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنّقه، وأضفنا أنشوطةَ وَهَقِ الخزْيِ على عنقه، وأشفى على انقطاع ذَمائه ورَمَقه، ففرّجتَ عنه كربة لم يظنّها تنفرج، ونهجتَ له منهاَ وَجْهَ مَخْلَصٍ لم يحسَبْهُ يُنْتَهج، وأخليتَ وجهه لأذى المسلمين يُبْدِئُهُ ويُعيده، وَبَسَطْتَ فيهم يده وكانت في جامعةٍ تَقْصُرُهُ عمّا

يريده، ولو أنَّ صاحبَ رومةَ المشتملَ معه بعباءة الكفر والشرك، المنتحلَ ما يَنْتَحِلُهُ من كلمةِ الزورِ والإفْك، يكونُ مكانك من جوارنا، ويصاقبُ كما صاقَبْتَ قاصيةَ دارنا، ما أتى من نَصْرِهِ فوق ما أتيتَ، ولا تولّى من انتشالهِ، والسعي في استقلاله، إلاَّ بعضَ ما تولّيت، ولا أنحى على المسلمين من مضارّه إلا بدونِ ما أنحيتَ، ولا بَغَاهُمْ خبَالاً بأكثرَ مما بَغَيْتَ.

وما في تلك الجزيرة ـ عصمها الله ـ من صالحٍ ولا طالح إلا ما يَعْرِضُكَ على الله تعالى، ويرفعُ إليه فيك عقيرتَهُ بالشكوى، وكلُّ ما سُفكَ من دم، وانْتُهِكَ من مَحْرَمٍ، واستهلك من ذمم، فإليكَ منسوب، وعليكَ محسوب، وفي صحيفتكَ مكتوب، وموعدُ الجزاءِ غداً وإنّه لقريب، فانظر ما أنجح أثَرَكَ، وأربحَ متجرك، وأصلحَ موردك ومصدرك.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8، بيروت 1967.
- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم 2، مجلد 2 تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1978.
- د. تقي الدين عارف الدوري: صقلية وعلاقتها بدول البحر المتوسط، العراق 1980.
- د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين.
- الحميدي: جذوة الاقتباس، نشر محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1952.
- الحميري: الروض المعطار، تحقيق، د. إحسان عباس، بيروت 1975.
- ابن الخطيب: أعمال الإعلام، تحقيق د. العبادي، والكتاني.
- ابن خلدون: العبر، جـ 6، القاهرة 1968.
- ابن أبي دينار: المؤنس من أخبار إفريقية والمغرب.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس، المغرب 1973.
- د. سعيد عاشور: الحروب الصليبية.
- عبد الله بن بلقين: كتاب التبيان، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1955.

- ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1969.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949.
- د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام من غرب إفريقيا، بيروت 1988.
- دراسة حول رسائل ابن العربي، مجلة المناهل - وزارة الثقافة المغربية عدد 9، سنة 1977.
- مجهول: الحلل الموشية، تحقيق د. سهيل زكار، وزمامة - الدار البيضاء 1972. الحلل الموشية طبعة تونس 1910.

- مراجع أجنبية:

— Addison, John, «Ancient Africa, London, 1970.
— Anta Diob, «L'Afrique Noire Pré- Colonial, Paris, 1952.
— Awe, Bolanle, «Empires of Western Sudan Ibadan, 1967.
— Cardot, Véra, °Belles pages de l'histoire Africaine» Paris, 1961.
— Corsrevin, Robert, «Histoire de l'Afrique d'origines au XVI siécle», Paris, 1962.
— Fage, J.D. «An inrtoduction to the history of West Africa». Cambridge, 1959.

موقف المرابطين
من علم الكلام والفلسفة(*)

لن أتناول موضوع الفلسفة وعلم الكلام من ناحية تخصصية، فلست مؤهلة في هذه العلوم، وإنما سأتناول موقف المرابطين تجاهها، فقد استقرت في عقول العديد صورة غير واقعية عن العصر المرابطي، فصوروا أمراءه بأنهم أجلافاً متعصبين طغت جموعهم على الأندلس فقضت على حضارتها، ووقفت في وجه الفلسفة، ومنعت تدريس علم الكلام، كما اتهم فقهاء هذا العصر بالجمود وعدم التجديد.

ولكن من خلال البحوث والدراسات الحديثة وظهور عدة مصادر تبين زيف هذه الاتهامات. فدعوة المرابطين قامت على أساس العلم وعليه قامت دولتهم، ولا شك أن مؤسس دعوتهم عبد الله بن ياسين كان مسلحاً بمذهب عقلي حتى يستطيع أن يقارع الخوارج والبرغواطيين والشيعة البجلية الحجة بالحجة، ويناقشهم في حقيقة مذهبهم، فهو تلميذ وجاج بن زللو تلميذ أبي عمران الفاسي الذي صحب الباقلاني وأخذ عنه المذهب الأشعري في قالبه الفلسفي[1].

(*) بحث ألقي في ندوة الخبراء العرب حول التدريس والفكر والبحث الفلسفي في الدول العربية «ذكرى ابن طفيل» مراكش 6 :9 يوليه 1987.

(1) انظر كتاب السياسة للمرادي تحقيق د. سامي النشار، المقدمة.

وقبل الحديث عن ابن طفيل يحسن الإشارة إلى الفلسفة في عهد المرابطين، فابن طفيل وابن رشد ما هما إلا نتاج دولة المرابطين، فالعالم والمفكر لا يمكن أن يولد بين يوم وليلة، ومعظم المفكرين والعلماء الذين كانوا في بداية الموحدين ولد معظمهم وعاش وتلقى العلم مع بداية المرابطين.

وعندما يذكر المراكشي عبارة «وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصر»[2] فهذا معناه أن كل علم كانت له فرصته في البروز والظهور، كما أنه من المعلوم أن غالب أهل العلم والأدب خصوصاً في هذا العصر درسوا الفقه وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه، ولقب فقيه كثيراً ما كان يطلق على العالم بأي فرع من فروع العلم ولو لم يشتغل بالفقه[3].

وكانت الدراسات الفلسفية قد أصيبت بنكسة كبيرة بعد إحراق كتب الفلسفة وعلوم اليونان في مكتبة الحكم المستنصر الأموي (350 :366هـ/ 861 :976م) والتي أمر بها المنصور بن أبي عامر (366 :393هـ/ 976 :1002م) تقرباً إلى الفقهاء، غير أن سقوط الخلافة وقيام إمارات الطوائف في كل ناحية أتاح الفرصة لهذا العلم أن يبدأ من جديد، ويعزو صاعد الطليطلي في كتابه «طبقات الأمم» تلك الحياة التي تجددت في الدراسات الفلسفية إلى

---

(2) المراكشي: المعجب، ص. ص 163، 164.

(3) المقري: نفح الطيب، جـ 1، ص 221.

أسباب ترجع كلها إلى الحالة السياسية التي سادت الأندلس أيام الطوائف فيقول: «لم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها [الحكمة وعلوم الأوائل] ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أمية في الأندلس وافترق الملك بين المنتزين عليهم في صدر المائة الخامسة من الهجرة وصاروا طوائف، واقتعد كل ملك قاعدة من أمهات البلاد فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم، واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد من خلالها أعلاق من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدي الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر، وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء مما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً، وقواعد الطوائف تتمصر قليلاً قليلاً إلى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها إلى أن زهد الملوك في هذه العلوم»[4].

وبدخول المرابطين الأندلس تمتعت نواحيه بتسامح عظيم فتكلم أصحاب كل الآراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئاً، وحظيت العلوم العقلية بالتشجيع ووصلت إلى درجة كبيرة من التخصيص والتجويد، فنجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء[5]

(4) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص 76.

(5) انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين.

انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والطب وعلم الكلام وغيرها من العلوم، ووصلوا بها نتيجة هذا الانقطاع إلى ذروتها العليا، فألفت المصنفات في الفلسفة والمنطق، وكانت هذه الكتب معروفة ومتداولة بين المثقفين، لأن العامة وأنصاف المتعلمين لهم موقفهم من هذه العلوم يقول ابن سعيد «فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة وحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان»[6].

ومع ذلك فقد كثر أنصار الفلسفة العقلية الذين يقولون بدين واحد للبشر جميعاً، وانتشرت رسائل إخوان الصفاء، ودخلت أفلاطونية حديثه بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها، وظهرت نتيجة ذلك مدرسة جديدة بدأت بأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت 528هـ/ 1134م) الذي ألف كتاباً في المنطق يوجز فيه آراء أرسطو بعنوان «تقويم الذهن»[7] ثم ابن السِّيد البطليوسي (ت 521هـ/ 1127م) ومالك بن وهيب، وابن باجة (ت 532هـ/ 1138م).

وترجع أهمية كتاب الحدائق الذي ألفه ابن السِّيد البطليوسي ليس لأنه كتاب سهل العبارة يعين غير المتخصصين في الفلسفة على فهم المبادىء الفلسفية، بل لأنه يعرض لنا صورة صادقة وواضحة إلى حد كبير لما آلت إليه المعارف الفلسفية خلال الفترة

---

(6) المقري: م. س. جـ 1 ص 221.

(7) نشره جنثالث بالبنثيا سنة 1915 انظر آنخل جونثالث تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة د. حسين مؤنس، ص 333.

التي أُلف فيها فقد كتب في نفس الوقت الذي كان ابن باجة يؤلف فيها كتبه، وقبل أن يفكر ابن طفيل وابن رشد في شرح مؤلفات أرسطو، ومما يزيد في أهمية الكتاب ما يثيره من مشاكل متعددة تتعلق بالمراجع الخاصة بدراسة أفلاطون وهي مشاكل جديرة بأن يناقشها المتخصصون في الفلسفة، كما يعتبر أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني[8].

ويعتبر مالك بن وهيب جليس ومستشار ووزير أميـر المسلمين علي بن يوسف من أهم فلاسفة ذلك العصر، وصفه الحجاري صاحب المسهب بأنه «فيلسوف المـغـرب»[9] بينما ذكـر عبد الواحد المراكشي بأن له تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة وأنه رأى بخطه كتاب الثمرة لبطليمـوس، وكتاب المجسـطي في علم الهيئة، وأخذ مالك من كل علم وفن، وبرع في علوم اللغة وتفوق فيها وألف فيها[10]. وللأسف لم يقيد ما كتبه، أو ربما كان يكتب ويخفي ما كتب لما يعرفه عن موقف العامة من هذا العلم. وأكد ذلك ابن أصيبعة بقول: «غير أن مالك لم يقيد عنه إلا قليل نزر في أول الصناعة الذهنية، وأضرب الرجل عن النظر ظاهراً في هذه العلوم، وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها»[11]، وكثر حساده لمكانته عند أمير المسلمين فهجوه في أشعارهم منها:

---

(8) آنخل جونثالث: م. س. ص 333.

(9) المقري: م.س. جـ 3، ص 479.

(10) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 184 ذكر أنه ألف كتاباً سماه قراضة الذهب في ذكر أيام العرب في الجاهلية والإسلام.

(11) ابن أصيبعة: عيون الأنباء، جـ 3 ص 151.

دولـة لابن تـاشفـين عـلي ظهرت بالكمال من كل عيب
غيـر أن الشيطان دس إليهـا من خباياه مالك بن وهيب[12]

ومع ذلك لم يتخلى علي بن يوسف عن وزيره الفيلسوف الذي كان يثق بحكمته وعلمه.

أما الفيلسوف ابن باجة «أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ» ت 532هـ/ 1138م فقد ذاع صيته في الأندلس وأوروبا العصور الوسطى حيث عرفه الناس باسم Avenpace وهو صاحب مدرسة الشك، تأثر بالمدرسة اليونانية وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر، الذي فشا في شعر بعضهم لون من ألوان التحرر من قيود الدين، كما نبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والموسيقى. وتتلمذ على ابن باجة عدد من الفلاسفة والأطباء والمهندسين والموسيقيين، كان أشهرهم ابن طفيل (494 :581هـ/ 1010 :1185م) الطبيب الفيلسوف ويبدو تأثر ابن طفيل بأستاذه في رسالته المشهورة «حي بن يقظان»[13].

وكان طلبة العلم يحجون إليه في سرقسطه التي ازدهرت فيها هذه العلوم على يديه وبفضل تشجيع أميرها المرابطي أبي بكر بن تيفلويت الذي استوزر ابن باجة وقربه إليه وكان لا يفارقه، وعندما مات الأمير ابن تيفلويت حزن عليه ابن باجة ورثاه بقصائد

---

(12) المقري: م. س. جـ 3، ص 479.

(13) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، رقم 94، د. إحسان عباس، أخبار الغناء والمغنين في الأندلس، مجلة الأبحاث ـ الجامعة الأمريكية، بيروت، العدد 16، سنة 1963، ص 14، آنخل جونثالث: م. س. ص 347.

كثيرة[14]، وبعد سقوط سرقسطة عام 512هـ/ 1118م هاجر عدد كبير من العلماء إلى مدن شرق الأندلس على الخصوص مما كان له تأثير واضح على اتجاهاتها الفكرية[15].

والفكرة الأساسية التي أضافها ابن باجة إلى التراث الفلسفي هي التي تتعلق باتحاد العقل الفعال بالإنسان، وقد كانت هذه هي الفكرة الأساسية التي بنى عليها ابن طفيل رأيه الصوفي في وحدة الوجود، وتناولها ابن رشد وسار بها للأمـام[16].

واعتبر ابن أصيبعة[17] مالك بن وهيب وابن باجة فرسي الحلبة دون منازل إلا أنه كما سبق أن بينا أن عيب مالك عدم تقييد ما يكتب بينما كان ابن باجة يسجل ويقيد كل ما يعن له من فروع المعرفة وله أكثر من خمس وعشرين كتاباً ذكرها ابن أصيبعة في كتابه عيون الأنباء.

وارتبط الفيلسوفان برباط متين من الصداقة، فاستغلها عدوهما الطبيب المشهور أبي العلاء بن زهر في التشهير بهما لما كان بينه وبين ابن باجة من عداوة فقال فيهما:

لا بـد للزنـديق أن يصلبـا   شـاء الـذي يعضـده أو أبى
قـد مهـد الجـذع لـه نفسـه   وسدد الرمح إليـه الشبـا[18]

---

(14) انظر هذه الأشعار في ابن سعيد: المغرب، جـ 2، رقم 435، ص 119.

(15) Urvoy Dominique, «Une étude sociologique des Mouvements religieux danx l'Espagne Musulmane, Tome VIII, PP. 255- 256.

(16) آنخل جونثالـث، م. س. ص 347.

(17) ابن أصيبعة: عيون الأنباء، جـ 3، ص 101.

(18) المقري: م. س. جـ 3 ص 434.

وهجاه ابن باجة فقال فيه:

يا ملك الموت وابن زهر جاوزتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلاً في واحد منكما الكفاية[19]

من جهة أخرى نجد أن التصوف نفسه تأثر بهذا التيار الفلسفي، فتحول من الطور البدائي الساذج الذي هو طور الزهد والرياضة وحياة المجاهدة إلى الطور الفلسفي الذي ظهرت ثماره واضحة المعالم في مذهب ابن عربي في عهد الموحدين، فاتخذوا الغزالي نموذجاً وأستاذاً يعكفون على كتبه بالدرس والتحصيل، وينشرون آراءه ويدافِعُون عنها في إيمان وحرارة، لأنه كان أقرب إلى مشاربهم في فهمه للدين وموقفه منه ومن التصوف، ولم تقف ثقافتهم الروحية والفلسفية عند الغزالي وكتبه، بل تأثرت بالتراث الفلسفي اليوناني الذي ترجم في المشرق ثم نقل إلى الأندلس مثل فلسفة أفلاطون وأرسطو كما اتصلت بمؤلفات فلاسفة المشرق الإسلامي مثل الفارابي، وابن سينا، وإخوان الصفاء وبمؤلفات كبار المتكلمين لاسيما المعتزلة، ومؤلفات الصوفية حتى عصر القشيري، ومع أنه لم تظهر في تصوفهم نزعة فلسفية واضحة المعالم على نحو ما ظهر في تصوف ابن عربي، فقد اتجهوا بالتصوف إلى وجهة جديدة ذات طابع إشراقي متميز في أساليبه ومصطلحاته ومعانيه، كما يظهر في مؤلفات ابن برجان وابن العريف وابن قسي[20].

---

(19) ن. م.

(20) د. أبو العلاء عفيفي: أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية آداب الإسكندرية مجد 11 سنة 1957، ص 54.

وشكل علم الكلام تياراً فكرياً ميز عصر المرابطين، وإذا كانت سرقسطة وشرق الأندلس تميزت بعلوم الفلسفة والفلك والموسيقى، فقد كانت سبتة وأغمات من المراكز المهمة لعلوم الاعتقادات في العدوة، وكان أول من أدخلها إلى المغرب العالم الفقيه القاضي أبو بكر محمد بن الحسن المرادي، وجلس لإقرائها في مسجد أغمات، وصحب أمير المرابطين أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، وألف له كتاب «الإشارة في تدبير الإمارة» وهو كتاب يجمع بين الفلسفة والسياسة، وكانت له عدة مؤلفات في الاعتقاد منها «كتاب التجريد»[21].

وبعد وفاته 489 هـ/ 1095م حل مكانه تلميذه أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي في تدريس الاعتقادات في سبتة ومراكش وأغمات، وألف فيها، قال عنه ابن بشكوال[22] «من أهل التبحر والتقدم في علم التوحيد والاعتقادات وهو آخر أئمة العرب فيه».

وكان من أنجب وأشهر طلابه فقيه المغرب القاضي عياض الذي أخذ عنه علم الكلام في سبتة وأجازه في أرجوزته الكبرى وجميع تواليفه ورواياته، ومنها تآليف أستاذه الفقيه أبي بكر المرادي[23].

(21) القاضي عياض: الغنية رقم 97 تحقيق ماهر زهير ص 266، تحقيق د. محمد عبد الكريم، ص 282، السيوطي: بغية الوعاة، رقم 2198، ص 362.

وانظر مقدمة كتاب الإشارة في تدبير الإمارة تحقيق د. سامي النشار.

(22) ابن بشكوال: الصلة، رقم 1509، ص 644.

(23) القاضي عياض: الغنية رقم 97، ابن الزيات التادلي: التشوف رقم 11، =

وإذا ذكر القاضي عياض فيجب ذكر القاضي أبي بكر بن العربي أستاذه ومعلم العديد من فقهاء ذلك العصر - كان حجة في الفقه وأصوله والحديث ويعتبر فارس المتكلمين، عندما ذهب إلى المشرق صحبة والده لم تكن سنه تتجاوز السابعة عشر ومع ذلك أفحم فرق الباطنية وغيرها من الفرق الضالة المنتشرة بالمشرق بقوة حجته، وغزير علمه، بل لقد صوب لأستاذه أبي حامد الغزالي الأحاديث التي ضمنها كتابه الإحياء ونبهه إلى ضعفها وعدم صحتها. وعندما عاد إلى الأندلس ظهر تفوقه فتكاثر طلابه، ولم يكن يتحرج في الإجابة عن أي سؤال من أي فرع من فروع العلم.

وكتابه العواصم من القواصم حافل بمثل هذه التساؤلات، وكان يرى لهم الاقتصار على كتب علماء الأشعرية والعبارات الإسلامية والأدلة القرآنية، أما العلوم الأخرى كالفلسفة وعلم الكلام، وكتب الباطنية وغيرها فهذه تتوقف على الشخص إذا وجد في نفسه منة أو تفرس فيه الشيخ المعلم له ذلك، فلا بد من توقيفه على جميع مآخذ الأدلة واتساع درجات العلم، وتمكينه من بحبوحات المعارف حتى يكون مستقلاً بأعباء الشريعة مطيقاً على حمل أثقالها، بصيراً بالنضال عنها والذب عن حرماتها إذا

= ص 105، 166، تحقيق أحمد التوفيق، ابن بشكوال، م. س.

وتوجد أرجوزة ليوسف الكلبي بخزانة القرويين بفاس تبلغ ألف وثلاث مائة وخمسين بيتاً ضمن شرح لها تحت عنوان في العقائد، والشرح لأبي علي عمر بن أبي الحسن بن إسماعيل السكوني اللبلي من القرن السابع الهجري.

احتيج إليه فيها»[24]. وكتابه هذا يعتبر النموذج الراقي لعلم الفلسفة وعلم الكلام، فهو يناقش القضايا الفلسفية ومصطلحاتها الفنية مناقشة العالم المتمكن.

ولم يقتصر الأمر على طلبة العلم[25] في استفساراتهم بل نجد أمير المسلمين علي بن يوسف يرسل إلى قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد يسأله عن علماء الكلام، وأصول الديانات، يقول السؤال «ما يقول الفقيه القاضي الأجل الأوحد أبو الوليد ـ وصل الله توفيقه وتسديده، ونهج إلى كل صالحة طريقه في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحاق الإسفرايني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام، ويتكلم في أصول الديانات ويصف الرد على أهل الأهواء، أهم أئمة رشاد وهداية؟ أم هم قادة حيرة وعماية».

وأجاب ابن رشد «هم أئمة خير وممن يجب بهم

---

(24) ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق د. عمار طالبي نشره بعنوان آراء ابن العربي الكلامية، جـ 2، ص 109.

(25) سئل الفقيه أبو محمد عبد الحق عن الكتب الواجب قراءتها فبين للسائلين لكل فرع من فروع العلم ما يلزمه، وعندما أتى إلى علم الكلام قال «وأما ما سماه الناس من علم الكلام فهذا أيضاً يختلف حال الناس فيه، فاليسير منه في معرفة الاعتقادات من تأليف بعض الفقهاء وبعض المتكلمين فيه كفاية، لأن المزيد في هذا والاتساع فيه إنما يراد في بلد تكثر فيها البدع أو لمن يرجى أن يكون إماماً في هذا العلم فيرد على أهل الأهواء.

الونشريسي: المعيار، جـ 11، ص 230.

الاقتداء»[26] ولم يقتصر توجيه الأسئلة إلى أئمة العدوتين[27] بل أرسلت المسائل إلى مشاهير العلماء في المشرق وشد إليهم الرحال وكانت الأسئلة حول الذات العلية والقدم والحدوث والدهر والجوهر والنفس واليوم الآخر والحساب والدلالة على صدق الأنبياء وجبريل والملائكة، وحكم التقليد إلى غير ذلك من المسائل العقلية[28].

وقد كثر التأليف في علم الكلام ويعد عبد الله بن خلف الألبيري (ت 537هـ/ 1142م) من أكثر المؤلفين في علوم التوحيد والاعتقادات ومن مؤلفاته «النكت والأمالي في الرد على الغزالي»، و«البيان في الكلام على القرآن»، و«الأصول إلى معرفة الله ورسوله»، ورسالة الانتصار على مذاهب الأخيار» ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان و«الرد على أبي الوليد بن رشد في مسألة الاستواء، و«شرح مشكل ما وقع في الموطأ وصحيح البخاري»، بالإضافة إلى ما ألفه في الطب[29]، ويقول عنه ابن عبد الملك

---

(26) مجموع فتاوى ابن رشد مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، رقم 1072، ورقة 85.

(27) مسائل الحساب وقيام الميت من قبره لسؤاله وجهت إلى القاضي عياض انظر الونشريسي: المعيار، جـ 11، ص 253.

(28) وجه الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق إلى الإمام أبي المعالي الجويني عن الذات العليـة والحدوث والقدم وصفات الله تعالى. . .
الونشريسي: المعيار، جـ 11 ص. ص 230 :252.
وانظر الأسئلة التي وجهها القاضي ابن العربي إلى الإمام أبي حامد الغزالي من المصدر السابق ص. ص 163، 164.

(29) ابن الأبار: التكملة، رقم 1258، ص 439.

المراكشي[30]. كان متكلماً واقفاً على مذاهب المتكلمين متحققاً برأي أبي الحسن الأشعري، ذاكراً لكتب الأصول والاعتقادات، مشاركاً في الأدب متقدماً في الطب».

كما كان لأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن السرقسطي (ت 569هـ/ 1173م) صديق ابن طفيل وجاره في وادي آش قبل انتقاله إلى مراكش عدة مؤلفات في علم الكلام وأصول الفقه ذكره ابن فرحون[31] على أنه «كان متقدماً في علم الكلام، عالماً بالفقه، كتب في دواوين العلم، ودفاتره ما لا يحصى وأخذ عنه الكبير والصغير والنظير تدل على إدراكه وجودة تحصيله.

وإذا تتبعنا تراجم علماء الكلام وجدنا عـدداً كبيراً من الأسماء التي لمعت في ذلك العصر[32].

---

(30) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 6، رقم 546، ص 193، 194.

(31) ابن فرحون: الديباج المذهب ص. ص 48، 49.

(32) منهم على سبيل المثال لا الحصر:

أبو بكر بن المنخل (ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 151، ابن فرحون: الديباج، ص. ص. 48، 49).

- أحمد بن مضاء (السيوطي: بغية الوعاة، جـ 1، رقم 613، ص 323).

- أحمد بن سعيد المعروف بأبي العباس الجروي الوادي آشي (ابن فرحون، ص 57).

- ابن عز الناس (ابن الزبير، صلة الصلة، رقم 196، ص 296، ابن فرحون ص 48، 49).

- أبو عبد الله بن الحاج المعروف بالقنيقل (ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر، رقم 286). =

وبعد هذا العرض الموجز أرجو أن أكون وفقت في تصحيح بعض ما لصق من اتهامات لأمراء المرابطين وفقهاء ذلك العصر. فجل الفلاسفة وعلماء الكلام هم فقهاء قبل أن يكونوا فلاسفة، فالدين الإسلامي لا يحرم البحث في مثل هذه العلوم، فهي تدعمه وتثبته، وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحث على البحث المنطقي، ولكن هناك تحفظ في استخدام هذا الحق لأن فطر الناس متفاوتة ويجب أن يكون الشرع فوق العقل لأن الخير ليس ما قرره العقل وحده بل ما قرره العقل المتأدب بالشرع، أي لا بد من مقياس لليقين العقلي فهو غير مطلق ويقول أبـو الوليد الباجي وأبو الوليد بن رشد «أن المسلم المكلف عند استكمال شروط التكليف، وتصح منه جميع العبادات هو مكلف أيضاً بالنظر المفضي إلى العلم بما كان اعتقده أولاً تقليداً ـ فأول الواجبات النظر والاستدلال المؤدي إلى العلم بالمُكَلِّف وأن العبادة لا يصح التقرب بها إلى من كلفه قبل العلم بذلك النظر القريب، فيؤدي إلى اليقين، ولأن النظر الذي يفضي إلى العلم لا يحصل إلا بعد إمكان النظر، وذلك مما يَعْسُر أن يكلف بـه كل الخلق ـ ومن علم الله تعالى بدليل واحد ليس كمن علمه بأدلة، ولا من عاين المعجزة كمن نقلت له، ولا من شاهد المعجزات

= ـ أبو العباس أحمد بن بشير الغرناطي (ابن فرحون، ص 45).

ـ أبو عبد الله بن أبي زيد (ابن عبد الملك، م. س. رقم 897، ص 449).

ـ أبو عبد الله محمد يوسف بن سعادة البلنسي (ابن الأبار: المعجم، رقم 158، ص 176).

كلها كمن لم ير إلا بعضها[33] قال تعالى ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[34] وقال سبحانه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[35].

وقبل أن أختم كلمتي لا بد أن أشير إلى أن ابن طفيل يجب أن تكون نسبته أكثر إلى عصر المرابطين منه إلى الموحدين فهو لم يلتحق بخدمة الأخيرين إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره[36]، وبعد أن ألف كتبه الفلسفية في عهد المرابطين، وهو عندما التحق بخدمة عبد المؤمن وأولاده كانت صفة الطبيب الوزير هي الغالبة على عمله. والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(33) الونشريسي: م. س. جـ 11، ص 271.

(34) سورة الزمر، آية 9.

(35) سورة فاطر، آية 28.

(36) كان ابن طفيل يعمل في بلاط أحمد بن ملحان الطائي المنتزي في وادي آش، وعندما وجد ابن ملحان أنه لا يستطيع الاحتفاظ بإمارته بسبب تهديد ابن مردنيش أمير شرق الأندلس وحلفائه النصارى، لجأ إلى الموحدين ودخل في طاعتهم سنة 546هـ وبعدها بمدة التحق ابن طفيل في خدمة عبد المؤمن.

انظر ابن الخطيب أعمال الأعلام نشر ليفي بروفنسال، ص 255.

المـراجـــع

- ابن الأبار: التكملة، نشر عزت العطار، القاهرة 1956.
- المعجم، نشر فرانسيسكو كوديرا، مجريط 1985.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، جـ 3 بيروت 1956.
- ابن بشكوال: الصلة، الدار المصرية للنشر 1966.
- ابن العماد الأصفهاني: خريدة القصر، تحـ عمر الدسوقي، القاهرة 1964.
- د. إحسان عباس: أخبار الغناء والمغنين، مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية بيروت العدد 16، 1963.
- البيدق: أخبار المهدي، الرباط 1971.
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني: نشر ليفي بروفنسال بيروت 1956.
- ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، تحـ د. شوقي ضيف ط 3 سنة 1978 القاهرة.
- السيوطي: بغية الوعاة تحـ محمد أبو الفضل القاهرة 964.
- صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، مصر د. ت.
- ابن الزبير: صلة الصلة، تحـ ليفي بروفنسال، الرباط 1937.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل، السفر الخامس، تحـ إحسان عباس، بيروت 1650. السفر 6، تحـ إحسان عباس، بيروت 1973.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحـ محمد سعيد العريان، القاهرة 1949.

- ابن العربي: العواصم من القواصم، تحـ د. عمار طالبي، نشره بعنوان آراء أبي بكر بن العربي، العلافية الجزائر 1974.
- القاضي عياض: الغنية، تحـ ماهر زهير، بيروت 1982.
- أبو عبد الله ابن القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، تحـ د. محمد بنشريفة الرباط 1973.
- ابن فرحون: الديباج، القاهرة 1239هـ.
- المرادي: كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحـ د. سامي النشار، الدار البيضاء 1981.
- المقري: نفح الطيب، تحـ إحسان عباس بيروت 1968.
- الونشريسي: المعيار المغرب، وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية 1981.
- أبو العلا عفيفي: أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين، مجلة كلية الآداب، جـ الإسكندرية مجلد 1 سنة 1957.
- آنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس القاهرة 1955.
- د. عصمت دندش: الأندلس نهاية المرابطين ومستهل الموحدين. دار الغرب سنة 1988.
- ابن رشد: مجموع فتاوى ابن رشد، مخطوط المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 1072.
- يوسف بن موسى الكلبي: أرجوزة في علم الكلام، مخطوطة بخزانة القرويين.

— Urvoy Dominique, «Une étude sociologique des Mouvements religieux dans l'Espagne Musulmane, Tome VIII, Paris 1972.

زيارة الأندلسيين لبلاط المرابطين بمراكش(*)

نحن نعلم أن الصلات لم تنقطع بين العدوتين منذ صارت إسبانيا جزءاً من العالم الإسلامي، وعند الحديث عن زيارة الأندلسيين لبلاط المرابطين بمراكش سيكون موضوعي محدداً في إطار الزيارات التي اتخذت طابعاً خاصاً لحضرة أمير المسلمين، ولن أتعرض لكل من حط الرحال بالعاصمة أو أقام بها، فهذا موضوع موسوعي كبير تفرغ له البعض من قبل كالقاضي العباس بن إبراهيم الذي ألف كتاب «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام». كما أنني لن أتعرض لرحلة المغاربة للأندلس فهذا موضوع آخر.

لقد كان لجهاد وإخلاص المرابطين في بلاد السودان والمغرب ونجاحهم في القضاء على الكثير من البدع ونشر الإسلام صدىً كبيراً انعكس على مجريات الأمور في الأندلس، ومن الملاحظ أنه منذ الفتح صار التاريخ مشتركاً بين العدوتين، فكل ما كان يجري في الأندلس كان ينعكس على المغرب والعكس عندما تحدث في المغرب أمور كان ينعكس أثرها على

(*) بحث ألقي في ندوة المغرب والأندلس ثلاثة قرون من التاريخ المشترك 5هـ ـ 8هـ/ 11 - 14م (12 -14/ 2/ 1988).

الأندلس، حتى دب الأمل في نفوس أهلها الذين مزقتهم فرقة وتباغض أمرائهم، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن حماية بلادهم بسبب اشتداد هجمات ألفونسو السادس ملك قشتالة، والذي أعطوه الفرصة عندما استعانوا به وبجنده ضد بعضهم البعض.

وإذا حاولنا تصنيف زوار البلاط المرابطي نجدهم إما كتاب أو أمراء أو سفراء لهم، أو فقهاء قضاة ومهندسون وشعراء وأصحاب شكاوى أو وشاة أو مبعدون عن الأندلس لسبب أمني إذ الثابت أن المرابطين لم يلجأوا إلى قتل مخالفيهم وإنما أقصى عقاب لهم كان السجن أو الإبعاد.

كما أننا نلاحظ أن هناك مرحلتين لوفود هؤلاء الزوار المرحلة الأولى قبل وحدة المغرب والأندلس، والأخرى تلت وحدة العدوتين.

في المرحلة الأولى كان زوار البلاط المرابطي إما فقهاء وكتاب، أو أمراء، أو سفراء أو أصحاب صنائع، ومنهم من أتى يجرب حظه في بلاط المرابطين بعد أن سئم العمل لأمراء الطوائف أو من أتى حاملاً رسالة، ومنهم الموتور الذي جاء يشكو أو يشي. كما أدت الأحداث التي سادت بلاد الأندلس في هذه المرحلة إلى حمل رجال الفكر والأدب على تركها والاتجاه إلى مدن أخرى تنعم بالهدوء والاستقرار، ووجدوا ما يحقق غرضهم في بلاط أمير المسلمين.

كان من أوائل الذين التحقوا بالبلاط المرابطي العالم الفقيه أبو بكر المرادي الذي اتصل بالأمير أبي بكر بن عمر واستطاع أن

يكسب ثقته فاتخذه وزيراً ومشاوراً وجليساً ومعلماً، وطلب منه أن يكتب له كتاباً في أصول الحكم، فألف له كتاب السياسة في تدبير الإمارة[1]، ليكون مرجعاً له في طريقة الحكم والمرادي هو أول من أدخل علوم الاعتقاد والحكمة إلى المغرب وأخذ عنه عدد من طلبة العلم منهم أبو الحجاج يوسف الكلبي الضرير[2] الذي جلس مكانه في مسجد أغمات وسبتة يدرس علم الكلام عندما كان المرادي يصحب الأمير أبي بكر في جولاته.

لحق عبد الرحمن بن أسباط بالعدوة يجرب حظه في البلاط المرابطي بعد أن تعثرت أحواله المعيشية في ألمرية سنة 472هـ 1079م يقول ابن الخطيب «كان مقدوراً عليه في رزقه يتحرف بالنسخ ولم يكن حسن الحظ ولا معرًب اللفظ»[3].

حاول ابن أسباط بعد وصوله مراكش العمل ببلاط أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، غير أنه نجح في التعلق بحاشية الحرة زينب النفزاوية زوجة الأمير، فاتخذته كاتبها الخاص، وبعد وفاتها لحق بخدمة الأمير يوسف واستطاع أن يكسب ثقته ويشير عليه في الأمور خصوصاً التي تتعلق بالأندلس، «فنال ما شاء مما ترتمي إليه الهمم جاهاً ومالاً وشهرة»، وبقي كاتبه ووزيره إلى أن توفي سنة 487هـ (1094 م).

ووفد على مراكش من الأندلس عدد كبير من أرباب الصناعات كل يعرض خدماته ومهاراته وخبرته في بناء المساجد والقصور

---

(1) نشر هذا الكتاب بتحقيق المرحوم الدكتور سامي النشار.

(2) عياض: الغنية رقـم 97، التشوف رقم 11 ص 105.

(3) ابن الخطيب الإحاطة جـ 3 ترجمة عبد الرحمن بن أسباط ص 523.

وجلب المياه وفلاحة البساتين، واصطفى الأمير يوسف بن تاشفين المهندس عبد الله بن يونس الذي عمل على استخراج المياه لسقي البساتين بطريقة هندسية، إذ كانت المدينة تفتقر إلى المياه والخضرة ولم يكن بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين، وبفضل طريقة ابن يونس الهندسية انتشرت البساتين والجنات واتصلت العمارة بمراكش وحسن منظرها[4].

على أن ما يميز الزيارات لبلاط الأمير يوسف بن تاشفين هي وفود بعض أمراء الطوائف ووصول سفاراتهم تطلب منه الوقوف إلى جانبهم وتحرضه على العبور إلى الأندلس لرد هجمات ألفونسو السادس التي نشطت، والذي استغل مرحلة التفكك فأرهقهم بمطالبه وبالإتاوات التي فرضها عليهم يقول الحميري: «وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم»[5].

وعاود المعتمد بن عباد الاتصال بالأمير يوسف وخاطب جاريه المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن حبوس صاحب غرناطة واتفق ثلاثتهم على إرسال وفد إلى الأمير يوسف بن تاشفين من قاضي غرناطة وقاضي بطليوس وقاضي الجماعة بقرطبة أبي عبيد الله بن أدهم ووزير بن عباد أبي بكر بن زيدون، وعرف المعتمد الوفد بأن أربعتهم رسل إلى الأمير يوسف وأسند

---

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق ص 67.

(5) الحميري: الروض المعطار، حارة الزلاقة ص 288.

إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد وعهد إلى ابن زيدون إبرام العقود السلطانية وما تتطلبه في مثل هذه السفارات، ولما وصلوا إلى حضرة الأمير يوسف استمع إليهم وأصغى إلى قولهم ووعدهم خيراً بعد أن ينتهي من استكمال وحدة المغرب[6].

وبعد سقوط طليطلة سنة 478هـ (1085م) لم يعد الأمر يحتاج إلى إرجاء فعبر المعتمد إلى يوسف بن تاشفين يطلب عونه ويستحثه على الجهاد والوفاء بوعده ثم أرسل وزيره ابن القصيرة الذي سافر عدة مرات إلى بلاط المرابطين وقام بعبء هذه السفارات فارتفعت منزلته لدى المعتمد حتى أنه «استولى على الدولة استيلاء قصر عنه أشكاله» على حد قول ابن بسام[7]. وقام ابن القصيرة بدور له خطره في الأحداث التي أحاطت بمعركة الزلاقة وأثناءها، مما لفت نظر الأمير يوسف بن تاشفين إلى ذكائه ومقدرته فاستدعاه إلى بلاطه بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط سنة 487هـ/ 1084م وعلى إثر وصول خطاب عاجل من صاحب مصر لا ندري فحواه وجب الرد عليه بسرعة وكتابته بكفاءة وذكاء فقام ابن القصيرة بهذا العمل فكافأه ابن تاشفين «ورفع شأنه حتى أنساه زمانه»[8].

بعد الزلاقة كثرت وفود الأندلسيين وأعيانهم للتهنئة بالنصر وكثر تردد البعض للشكوى بأمرائهم وطلب حمايتهم وكان من جملتهم

---

(6) ن. م.

(7) ابن بسام: الذخيرة قسم 2، مجلد 1، ص 240.

(8) ن. م. ابن الخطيب: الإحاطة جـ 3 ترجمة ابن أسباط.

جماعة من وجوه بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة يشكون للعاهل المرابطي ما حل بأهلها بسبب حصن لبيط، حتى اضطر إلى الجواز مرة أخرى[9].

وحضر إليه الوزير الفقيه أبي القاسم الهوزني يشكو له ما حل بوالده على يد المعتضد بن عباد الذي قتل أبيه بيده وأمر بدفنه بملابسه دون غسل[10]. وحضر إليه الفقيه الكلاعي الذي شكى إليه خيانة عبد الله بن بلكين واتصاله بألفونسو.

لن أتطرق للأحداث السريعة المتلاحقة التي أدت إلى صدور فتوى من فقهاء الأندلس والمشرق تبيح للأمير يوسف بن تاشفين اجتثاث الداء من جذوره بالقضاء على حكم أمراء الطوائف وضم الأندلس إلى حكمه سنة 484 هـ/ 1091 م[11].

فبالقضاء على إمارات الطوائف صار حكم المرابطين يشمل السودان والمغرب والأندلس، وأصبح وطناً واحداً زالت بينه الفوارق السياسية، يتقاسم سكانه المصالح والمنافع، وسكن بعضهم إلى بعض يستفيدون ويفيدون، كل بعطائه وإمكانياته، فالمغرب والسودان تولى مسؤولية الجهاد والحماية، والأندلس أعطى الثقافة والخبرة، ووفد إلى الحاضرة من أهل كل علم وفن رجالاته، وكان البلاط المرابطي مطمح أنظار المثقفين والمفكرين حتى فاقت بغداد وبزتها في مجدها، يقول عبد الواحد

---

(9) الحلل الموشية ص 87.

(10) ابن بسام: م. س. قسم 2 مجلد 2 ص. ص 83، 291.

(11) انظر التفاصيل عنها في كتاب مذكرات الأمير بلقين «البيان والتبيين» وكتاب د. حسن محمود قيام دولة المرابطين.

المراكشي: وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكُتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار».

والتحق ببلاط أمير المسلمين معظم الكتاب الذين كانوا يكتبون لأمراء الطوائف، وكانت استعانة أمراء المرابطين بهؤلاء الكتاب من أجلى مظاهر توثق الصلات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين البلدين. من هؤلاء الكتاب: الكاتب الوزير أبو محمد عبد الغفور الذي قيل عنه أنه «علم بلاغة وإمام شرف»[12] كما ضم البلاط أبو عبد الله وأبو مروان بن أبي الخصال[13] وابن الجد[14]، وعبد العزيز بن سعيد البطليوسي المعروف بابن القبطورنة[15]، والفتح بن خاقان[16] وغيرهم.

واستدعى الأمير علي بن يوسف العالم الكبير أبا عبد الله بن عائشة ووكل إليه حسابات جميع المغرب ووضع في يديه مقاليد الأعمال[17].

---

(12) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص. ص 163، 164.

(13) وهو الذي كتب مرسوم ولاية العرب لولده علي. الحلل الموشية 145، عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 227.

(14) م. س.

(15) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة سفر 6، رقم 840، ص 323.

(16) ن. م، سفر 5، رقم 102.

(17) ابن بسام: الذخيرة قسم 3، مجلد 2 ص 887.

كان الأمير علي بن تاشفين يرسل أبناءه إلى الأندلس لتلقي العلم ويتشدد في تعليمهم، ولا يرضى بتهاونهم في الدراسة، وقد وفد على بلاطه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر يشكو لأمير المسلمين ابنه الأمير أبي بكر الذي لم يكن مكباً على الدرس والتحصيل فلما استمع الأمير علي بن يوسف إلى تقرير ابن زهر عن سير دراسة ابنه، حَمَّله رسالة يقرعه فيها وينهره ويتوعده بقوله: «كتابنا ألهمك الله رشد نفسك من حضرة مراكش بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير أبي العلاء بن زهر محل أبينا، يشكو ما يكدره ويقاسيه من تضريبك، فأمسك عليك رمقك، وخذ من الأمور ما يسر وإلا أنفذناك إلى ميروقة»[18].

وعائلة بني زهر تمتعت في عهد المرابطين بمركز متميز في بلاطهم خصوصاً أبي العلاء وابنه أبي مروان لتحققهم لصناعة الطب، يقول الحجاري[19] عن أبي العلاء «وحل عند يوسف بن تاشفين محلاً لم يحله الماء من العطشان، ولا الروح من جسد الجبان».

بينما كان أبو مروان يُستدعى من حين لآخر إلى بلاط مراكش كطبيب خاص لعلي بن يوسف الذي أصيب بداء السكر أو الكبد أو لمعالجة بعض أهل بيته كما صنف كتاب الاقتصاد في صلاح

---

(18) د. حسين مؤنس، سبع وثائق جديدة مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الثاني سنة 1954 ص 68.

(19) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 432.

الأجساد، للأميـر أبي إسحاق ابن أميـر المسلمين يوسف بن تاشفين[20].

وظل أبو مروان بن زهر أسيراً لدى أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أن بلغه عنه ما أغضبه، ويذكر لنا ابن عذاري[21] أنه في سنة 524هـ/ 1130م حدث خلاف بين ابن زهر وصديقه وصهره الزهري تبادلا فيها الاتهامات فسارع الزهري إلى بلاط أمير المسلمين بمراكش ووشى بابن زهر للأمير علي بن يوسف وأبلغه عنه ما أغضبه وغَيَّره، ولحق به ابن زهر أيضاً محاولاً مقابلة أمير المسلمين، فلم يسمح له بمقابلته أو الوصول إليه وأمر الزهري بسكنى مراكش وابن زهر فـاس وعدم عـودتهما إلى إشبيلية، يقول ابن عذاري[22] عن ابن زهر «وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة يولي من قبله حاكم يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته وشهود البلد بحكمه، وأمْر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية والزهري في كل ذلك تلوه ومقتد به، فما راعوا الحرمة، ولا أدوا شكر النعمة».

وأرسل الأمير علي بن يوسف وراء الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن خلوف المعروف بابن شبونة واختصه لنفسه وكان يثني عليه لأنه لا يداهن في فتياه ولا يصانع أحداً، يقول القاضي

---

(20) ابن عبد الملك المراكشي: م. س. سفر 5، قسم 1، رقم 31، ص 18.

(21) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 65.

(22) ن. م.

عياض[23] «وكان أمير المسلمين يصفه بذلك ويعرف حقه ويكرمه ويمازحه وكان هو يُدِلُّ عليه بصحبته وسلامة مذهبه».

وازدان بلاط المرابطين بالفقيه العالم الحكيم مالك بن وهيب الذي ذكره الحجاري[24] بأنه فيلسوف المغرب وأضاف عبد الواحد المراكشي[25] بأن له تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة وأنه رأى بخطه كتاب الثمرة لبطليموس وكتاب المجسطي في علم الهيئة، وأخذ مالك من كل علم وفن فكان أمير المسلمين علي يستريح لصحبته ويعتمد عليه في الوزارة والمجالس العلمية ومن أشهرها المجلس الذي جمع ابن تومرت وبعض فقهاء الدولة منهم أبو بكر محمد بن أسود قاضي قضاة شرق الأندلس.

وكان مالك بن وهيب يستدعي إلى بلاط أمير المسلمين من حين لآخر صديقه الفيلسوف ابن باجة وزير وجليس الأمير أبي بكر بن تيفلويت مما أثار حفيظة الوزير الطبيب أبي العلاء بن زهر فهاجمهما في شعر يقول فيه:

لا بد للزنديق أن يصلبا   شاء الذي يَعْضُدُه أو أبى
قد مهد الجِذْعُ له نَفْسَهُ   وسدد الرمْحُ إليه الشبا[26]

كما دس من يقول في مالك بن وهيب:

دولة لابن تاشفين علي   طهرت بالكمال من كل عيب

---

(23) عياض: الغنية رقم 87.

(24) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 479.

(25) عبد الواحد المراكشي: م. س. ص 184، ابن أصيبعة: عيون الأنباء جـ 4 ص 101.

(26) المقري: جـ 3، ص 434.

غيـر أن الشيطان دس إليهـا من خباياه مالك بن وهيب[27]

وكان لمالك بن وهيب دالة على أمير المسلمين علي فسهل لعدد من الأنـدلسيين المغضوب عليهم لقـاءه والتماس عفـوه منهم عبد الوهاب بن المعتمد بن عباد الملقب بعز الدولة في أيام رياستهم والذي أخذ العلم على ابن وهيب فلما خُلع المعتمد ونفي إلى أغمات اتصل عز الدولة بابن وهيب وسهل له زيارة الأمير علي بن يوسف فـولاه صلاة الفـريضة بجـامع مـراكش واستنيب في الخطبة به مدة طويلة[28].

وزار المنصور بن سير بن مسلمة الشهير بابن الأفطس أمير المسلمين بمراكش ملتمساً عفوه وكان قد لجأ إلى قشتالة، فأكرمه الأمير علي وسارت له منزلة لطيفة ومكانة رفيعة[29].

وكان أمراء المرابطين يستدعون إلى بلاطهم قضاة النواحي للتشاور معهم في أمور هذه النواحي والاطمئنان على سير الأمور أو التحقق من صحة الشكاوى التي ترد إليهم، إذ كانت أبواب القصر مفتوحة في وجه الشاكين والمتظلمين، وكان الأمير علي بن يوسف يجلس بنفسه لسماع ظلاماتهم والتحقيق فيها، وعندما وصله وفد مُعاهدة غرناطة يشكون إليه الأمير عمر يَنَّاله اللمتوني أمر بعزله وإشخاصه إليه مكبلاً وواجهه بالشاكين في مجلس نظره، فلما أدلوا بحججهم على ظلمه أمر بسجنه وإنصافهم[30].

---

(27) ن. م. ص 479.

(28) ابن عبد الملك: م. س. سفر 5، قسم 1، رقم 178.

(29) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 56.

(30) ن. م ص 77.

وشجع عدل الأمير علي بن يوسف الناس على التوجه إلى العاصمة للدفع برقاعهم إلى حضرته مما جعله في حيرة، إذ قد يختلط في هؤلاء الشاكين والمتظلمين، المحق بالمبطل والصادق بالكاذب، ولهذا أصدر أمراً بأنه لن ينظر في ظلامة أو يقبل شكوى من أحد إلا إذا كان معها بيان من قاضي بلده يدل على صحة ظلامته، وحتى لا يتجشم المظلمون مشقة السفر إلى العاصمة لعرض شكاواهم على أمير المسلمين وأرسل إلى قاضي القضاة بهذه الأوامر ونفسه تجيش ألماً للمشقة التي يلاقيها أمثال هؤلاء الشاكين فيقول في رسالته «فانصرفوا وفي نفوسنا ـ علم الله ـ من قبلهم ما يشق حمله ولا يخف مثله، فإنه لا يمكن إلا أن يكون فيهم الصادق البر، والرجل المضطر، لكن الخير أردنا، والبر قصدنا»[31].

وعمد بعض الشاكين إلى وساطة بعض القضاة أمثال القاضي ابن حمدين وابن العربي وابن رشد الذين تمتعوا بمركز قوي عند أمراء المسلمين لحل مشاكلهم، ومن هؤلاء أبو جعفر بن أبي جعفر الخشني الذي توجه إلى القاضي أبي الوليد بن رشد بقرطبة طالباً منه مخاطبة أمير المسلمين لما اشتهر عن مكانة أبي الوليد عند ولاة الأمر، واحترامهم جانبه وإجلالهم إياه، وقبول شفاعته والوقوف عند آرائه من أجل رفع الضرائب التي فرضت على ضياع أبيه ورباعهم، فكتب له ابن رشد رسالة قصد بها إلى بلاط الأمير علي بن يوسف بالحضرة وأنهى إليه توصية الفقيه ابن رشد،

---

(31) د. محمود مكي: وثائق جديدة رقم 4، ص 171، مجلد 7، 8، سنة 1959، 1960.

فكتب له منشور تنويه وإكرام، وكتب إلى الوالي يرفع ما فرضوه، وألا يُتعَرض له إلا بالخير[32].

وكان وجوه وأعلام النواحي لا تنقطع زيارتهم للبلاط المرابطي تُعَرِّف الأمير بمناطق الضعف والخلل في البلاد واحتياجاتهم للعدة والعتاد والمال لحماية المدن والحصون، فكان أمير المسلمين يستمع إليهم بانتباه ويقظة شديدين ويطلب ممن سبق له ولاية هذه النواحي الإدلاء بنصائحه ليستنير برأيه واعداً بذل ما يستطيع[33].

ومن الزيارات المهمة في هذا الغرض زيارة وفد من أعيان وقضاة شرق الأندلس صحبة الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني والأمير محمد بن ترقوت (ابن الحاج) لإطلاع الأمير علي بن يوسف على حاجة هذه النواحي للإمدادات المالية والمادية وحضر الأمير أبو الطاهر تميم هذا اللقاء وأشار على أمير المسلمين بما يجب عمله لهذه النواحي التي سبق أن عمل بها[34].

وتعد زيارة قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد سنة 519هـ (1126هـ) من الزيارات المهمة ذات الطابع الخاص، فقد تجشم الرحلة إلى حضرة مراكش رغم سنه المتقدمة فتلقاه أمير المسلمين بالإجلال والإكرام، وكان هدف الزيارة غرضين أحدهما إطلاع أمير المسلمين على أحوال لأندلس وما جناه عليها المجاهدون من استدعاء ألفونسو المحارب (ابن ردمير) والغرض

---

(32) ابن عبد الملك سفر 6، رقم 799، ص 306، 808.

(33) انظر رسالة رقم 11، 12 من د. محمود مكي وثائق جديدة.

(34) ن. م.

الثاني طلب عزل الأمير أبي الطاهر تميم شقيق أمير المسلمين عن ولاية الأندلس وتقديم غيره، وقد نفذ أمير المسلمين لابن رشد ما طلبه[35].

وكان المرابطون يجدون في تخصيص وقت لمجالس الشعر ترفاً لا تسمح به الظروف، كما كان للفقهاء الذين يُسيرون شؤون الدولة دوراً في قلة زيارة الشعراء لبلاط أمير المسلمين، وكان شعراء المدح يجدون صعوبة في انتقالهم إلى حضرة أمير المسلمين لما تتكلفه الرحلة من الجهد والمال، وهذا يفسر لجوء بعض الشعراء إلى إرسال أشعارهم إلى بلاط المرابطين بدلاً من رحيلهم كما فعل الأعمى التطيلي عندما وجه قصائده إلى الوزير مالك بن وهيب لإيصالها إلى الأمير علي بن يوسف ويقول فيها:

وبين أمير المؤمنين وبينه مضايقة الحجاب أو هيبة الحجب
وأنت قديماً كنت أول رائش لدي حتى طار في الشرق والغرب[36]

كما وفد إلى البلاط المراكشي الشاعر المعروف ابن خفاجة[37] وابن المرخي[38] وابن وهبون[39] وغيرهم لمدح أمير المسلمين علي أو بعض الأمراء والأميرات.

---

(35) عن هذه الزيارة انظر ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ص 119، 120، الحلل ص 98.

(36) عبد الحميد الهرامة ديوان الأعمى التطيلي، ص 169.

(37) ديوان ابن خفاجة ص 367.

(38) ابن عذاري: م. س، ص 4، ص 57.

(39) ديوان ابن خفاجة ص 367.

وعندما توفي الأمير يوسف بن تاشفين انزعج إلى الحضرة عدد من الشعراء لرثائه منهم الشاعر أبو بكر بن سوار الأشبوني وأنشد قصيدة على قبره أبكت الحاضرين ومطلعها.

ملك الملوك وما تركت لعامل عملاً من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف والكل يعقوب بما نطويه[40]

ولم يقتصر زوار البلاط المرابطي على هذه النماذج فقد استقبل الأمير علي بن يوسف الفلاك الأندلسي أحد الخارجين على القانون، ومن المشاغبين وقطاع الطرق فعفا عنه، واصطنعه بعد توبته، وكان له دور كبير في مواجهة مهدي الموحدين، يقول صاحب الحلل[41] عنه «كان فاتكاً شهماً، قاطع سبيل فعفا عنه أمير المسلمين علي، وسد به ثغور مراكش، فأول ما صنع له حصون ضبط بها أنقاب جبل درن الذي يتوقع بسببها الخوف من نزوله إلى البسائط فمنعهم».

وعندما اشتدت حركة المريدين بالأندلس خصوصاً في ألمرية، وإشبيلية، وشلب وغيرها قبض على بعض زعمائهم وتم ترحيل عدد منهم إلى الحاضرة كابن برجان والميورقي وابن العريف والشبوقي وغيرهم، فزج بعضهم في سجن مراكش، وبرئت ساحة البعض، ولكن الأمير علي بن يوسف عندما علم بإشخاص ابن العريف ووصوله إلى سبتة أرسل إليه من اصطحبه مكرماً إلى

(40) القصيدة وردت في الذخيرة القسم الثاني، ص 322، الإحاطة جـ 4 ترجمة يوسف بن تاشفين ابن عذاري ص 47.
(41) الحلل الموشية ص 113.

بلاطه بمراكش، واستقبله بنفسه بحفـاوة، وطلب منه عـرض حوائجه[42].

تلك أمثلة قليلة عن زيارات الأندلسيين للبلاط المرابـطي بمراكش.

(42) انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين الباب الأول «ثورة المريدين».

المصادر والمراجع

- الإدريسي: نزهة المشتاق، بالرم، 1972.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت 1956.
- ابن بسام: الذخيرة، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1978.
- أبو بكر المرادي: السياسة وتدبير الإمارة، تحقيق د. سلمى النشار، الدار البيضاء 1981.
- التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1984.
- د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة 1957.
- د. حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد 2، سنة 1954.
- الحميري: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.
- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان.
- ابن خفاجة: الديوان، تحقيق د. السيد مصطفى غازي، الإسكندرية 1960.

- عبد الحميد الكرامة: الأعمى التطيلى، طرابلس، 1983.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة سفر 6، سفر 5، تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1973، 1965.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق سعيد العريـان، القاهرة 1949.
- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، جـ 4 تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1969.
- د. عصمت عبـد اللطيف دنـدش: الأنـدلس في نهـايـة المرابطين، بيروت 1988.
- د. محمود مكي: وثائق جديدة، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.
- المقري: نفح الطيب جـ 3، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968.
- مجهول: الحلل الموشية تحقيق زكار، وزمامـة، الدار البيضاء 1972.

أحداث مرابطية من كتاب التيسير(*) لابن زهر

يحيط تاريخ المرابطين الكثير من الغموض، ولكن في السنوات الأخيرة بدأنا نعثر في ثنايا بعض المخطوطات والكتب من حين إلى آخر على معلومات قيمة كشفت كثيراً من الإبهام الذي كان يغلف العديد من الأحداث التي كنا نقف عاجزين عن فهمها ولم نجد لها تفسيراً في المصادر التي تورد الخبر.

من هذه المصادر المهمة كتاب «التيسير في المداواة والتدبير»[1] للطبيب الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر. وترجع أهمية هذا الكتاب ليس لأنه يبين مدى ما وصل إليه الطب في عهد المرابطين من تقدم، ولكن ترجع أهميته إلى مؤلف الكتاب الذي يعد من أشهر أطباء الغرب الإسلامي، بل والعالم الإسلامي في هذه المرحلة، ولأنه هو ووالده أبو العلاء من الأطباء الذين انتدبوا لعلاج أمراء المرابطين، ونالوا حظوة كبيرة لديهم. لقد تبين لي من خلال عدة قراءات لهذا

(*) بحث ألقي في الاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس جامعة القاضي عياض (28 -30 يونيه 1989).

(1) صدر مؤخراً عن المنظمة العربية للتربية والعلوم، تحقيق د. ميشيل خوري.

الكتاب وغيره من المصادر معلومات قيمة غيرت كثيراً من الآراء السابقة والتي وهمنا فيها[2].

وعائلة ابن زهر اشتهرت في الأندلس بمكانتها ونبوغ عدد كبير من أفرادها في العلم والفقه والأدب والسياسة والطب فكان منها الفقهاء والأطباء والشعراء والوزراء.

فجدهم الفقيه محمد بن مروان بن زهر كان في بداية الدولة العبادية يتمتع بمكانة سامية بين الناس، واشتهر بعلمه وأدبه، فلما أحس القاضي أبو القاسم محمد بن عباد المتغلب على إشبيلية بخطورة وجوده في دولته وأهمية أمره ضايقه، واضطره لمغادرة بلده، وصادر أمواله واستصفاها، فلحق بشرق الأندلس، وأقام بها بقية عمره متنقلاً بين مدنها[3].

وفي شرق الأندلس نشأ ابنه أبو مروان عبد الملك الذي رحل

---

(2) د. حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الثاني سنة 1959 -1960.

د. محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ص 134.

د. إحسان عباس البيان المغرب لابن عذاري جـ 4 ص. ص 65 -66.

د. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ص. ص 412، 413 هامش 24، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية ص 145.

محمد العربي الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس ص. ص 279 -280.

(3) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثاني المجلد الأول، ص 219.

إلى المشرق، وتعلم الطب في القيروان ومصر، وأقام بهما مدة، ورحل إلى بغداد فتولى رئاسة الطب بها، ثم رجع إلى الأندلس بعلم كثير، وجلب معه دواوين كثيرة في مختلف العلوم(4).

قصد أبو مروان دانية، وكان أميرها في ذلك الوقت مجاهد العامري (408، 436 هـ)، فأكرمه وأمره بالإقامة عنده، وحظي في أيامه بمنزلة عظيمة، واشتهر في دانية بالتقدم في صناعة الطب، وطار ذكره في الغرب الإسلامي، ووفد عليه طلاب العلم من جميع أنحائه(5).

وفي دانية رزق بابنه أبي العلاء الذي أخذ عنه العلم وبرز في الطب، ولما جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس لحق به أبو العلاء وحاول المعتمد بن عباد استمالته، وصرف إليه بعض أملاك جده ليغريه بالعودة إلى إشبيلية(6).

استقر أبو العلاء بن زهر في إشبيلية بعد خلع المعتمد وكان قد رزق بابنه أبي مروان عبد الملك (484 أو 487هـ) صاحب كتاب التيسير موضوع دراستنا. فأخذ العلوم عن أكابر مشايخ عصره منهم أبو محمد عبد الرحمن بن عتاب(7) (ت 520 هـ)، وبعد أن

(4) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، سفر 1 :5، رقم 90 ص 37.

(5) المقري: نفح الطيب، جـ 2، ص 244.

- ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، جـ 3، ص 104.

(6) ابن بسام: م. س، ص 220.

(7) كانت الرحلة إليه في وقته لعلو سنده وسعة روايته وتمكنه في الحديث والقراءات والتفسير واللغة، ترجمته من عياض: المدارك جـ 4 ص 813.
ابن فرحون: الديباج ص. ص 274، 275.

تعلم أبو مروان العلوم الشرعية والأدبية واللغوية، وتعمق فيها تفرغ لمهنة الطب مزاولة وتأليفاً[8].

وحظي أبو العلاء بن زهر عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقربه إليه، يقول ابن بسام[9] «ودعا به أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ فلباه وحل من نفسه محلاً لم يحله الماء من الظمآن، ولا الروح من جسد الجبان».

ازدادت منزلة أبي العلاء وابنه أبي مروان عند أمير المسلمين علي بن يوسف، وتبوأ الاثنان المكانة السامية عنده واستعادت أسرة بني زهر مكانتها السابقة في إشبيلية وصارت معظم المراكز المهمة في أيديهم[10].

ويقول ابن أبي أصيبعة[11] أنهم «نالوا من جهة المرابطين النعم، والأموال شيئاً كثيراً، ولم يكن الأمير علي بن يوسف يرفض لهما طلباً. فحين مرض أبو العلاء بن زهر وبلغه أن القاضي ابن منظور سخر من خبر مرضه وقال مستخفاً: وطبيب ماهر يمرض؟.

رد عليه أبو العلاء شعراً قائلاً:

إن ابن منظورٍ تعجبَ هازلاً لما مرضتُ فقلت: يعثر من مشى
قد كان جالينوسُ يمرض دائماً فمنَ الفقيهِ المُرْتَضى أكل الرُشا

(8) ابن عبد الملك: م. س، رقم 31 ص 618.
(9) ابن بسام: م. س. ص 220.
(10) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 65.
(11) ابن أبي أصيبعة: م. س. ص 107.

وشكاه عند أميـر المسلمين فأنفـذ كتابـاً بعزلـه عن قضاء إشبيلية[12].

وكان أبو مروان بن أبي العلاء يتولى علاج أمير المسلمين عندما يحل على الأندلس، إذا أصابه مرض، فقد ذكر في كتابه التيسير أنه استدعي إلى قرطبة لعلاج الأمير علي بن يوسف من ورم بداخل أذنه سبب له آلاماً حادة يقول ابن زهر: «فوصلت إليه عصراً، والوجع قد بلغ من حدته أن وجدته يتمنى الموت ولو بالقتل لشدة الوجع»[13].

وكان يباشره بعد ذلك عندما أصيب بمرض الكبد الذي عانى منه كثيراً يقول: «وهذا الوجع ـ [أي الذي يحدث من تمدد غشاء الكبد] ـ كان كثيراً ما يصيب الشقي علياً، وعالجته منه بدهن استخرجته له من محاح البيض، مع شحم بط، فبريء من يومه ذلك، وكان يصيبه بعقب ذلك يرقان أصفر»[14].

لم يختص أبو العلاء وابنه أبو مروان بعلاج أمير المسلمين علي وإنما تعداه إلى عدد من أمراء المرابطين، خاصة أمراء إشبيلية. فاختص الأمير أبو إسحق إبـراهيم بن الأمير علي بن يوسف أبا مروان بن زهر، وحظي عنده، عندما كان والياً على إشبيلية (شوال 511هـ: جمادى الأولى 516هـ) وألف أبو مروان له كتاباً «الاقتصاد في صلاح الأنفس والأجساد» وأهداه إليه سنة 515هـ[15].

---

(12) ابن عذاري: م. س. 45، 49.

(13) أبو مروان بن زهر: التيسير ص 38.

(14) ابن زهر: م. س. ص 190.

(15) ابن عبد الملك: م. س. رقم 31، ص 18.

وآستدعي أبو مروان وأبوه أبو العلاء لعلاج الأمير أبي الطاهر تميم الذي ولي إشبيلية (516هـ ـ 517هـ) من حالة مرضية حادة في المعدة وثقل في الحركة لم يعرف سببها، فأعطوه علاجاً، وعندما زاراه في اليوم الثاني وجداه على حاله، فأمر أبو العلاء ابنه أبا مروان بملازمة الأمير أبي الطاهر تميم، والإقامة معه لملاحظة حاله التي كانت تشتد وتقل، وبالمصادفة اكتشف أبو مروان أن بعض القائمين على خدمة الأمير يضعون له شيئاً في آنية الماء الخاص به للقضاء عليه، يقول ابن زهر «ثم حضرت يوماً آخر عنده مع أبي ـ رحمه الله ـ وهو على حاله من التوهم، فالتزمت الإقامة والمبيت عنده، فكانت حاله مرة تخف، ومرة تشتد، فوقع في بالي أن ذلك عن داخلة تدخل عليه من خارج، وبقينا لا نعرف أي شيء هو ذلك، إلى أن اسْتَدْعَيْت في الليل ماء للشرب، فسُقيت بالآنية التي كان تميم يشرب بها، فوجدت في الماء طعماً منكراً، مجته نفسي، مع عطرية ورائحة كريهة كادت تخفى، فلم أشرب منه»... ويضيف «وكشف الغيب بعد ذلك أن الذي كان يسقاه لحم مجفف كان قد عفن أقذر تعفين، ثم جفف وسحق، وكانوا يصرونه، ويسقونه في الآنية، وإذا نظر الطبيب علم أنه لحم غليظ قد ناله تعفن، ثم جفوف، وعلم أن العفونة تدب دبيباً، فكان الرجل ما دام ذلك في معدته وما حولها تصعد منه أبخرة سوء إلى دماغه، فكان يتوسوس، ورام علاجَه وبُرْءَه، كل من كان يعالجه من أطباء كانوا في البلد حينئذ، فلم يبرء حتى عزله الشقي أخوه، فانقطع الرجاء من ماله، وارتفع لا شك عنه ذلك العمل السوء بانقطاع الطمع في ماله»[16].

(16) ابن زهر: م. س. ص 98.

عَزَل الأمير علي بن يوسف أخاه الأمير تميم عن إشبيلية سنة 517هـ وعَيَّنَ بدله ابنه الأمير أبا بكر وطوال مدة ولايته إشبيلية من (جمادى الأولى سنة 517 هـ إلى رجب 522هـ)[17] اتسمت العلاقة بين الأمير أبي بكر وأبي مروان بن زهر بالتوتر، فكثرت المشاحنة بين الطرفين، ولم يكن الأمير أبي بكر يستجيب لتوجيهات أبي مروان، وربما كان يستخف بملاحظاته ربما لتقارب سنهما فالأمير أبو بكر ولد سنة 493هـ[18]، وأبي مروان في سنة 484 أو 487هـ، فاضطر ابن زهر للسفر إلى مراكش ومقابلة أمير المسلمين لإطلاعه على أحوال ابنه، فاستمع إليه، وأمر كاتبه بإرسال رسالة يعنف فيها ابنه، ويهدده بالنفي إلى ميورقة إذا لم يلزم حده، ويستمع لتوجيهات ابن زهر مما يدل على مبلغ ما وصل إليه ابن زهر عند أمير المسلمين تقول الرسالة «كتابنا ألهمك الله رُشْد نفسك، وأبرء يومك من أمسك، ولا أجناك ثمرة غرسك، من حضرة مراكش، حرسها الله ـ بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان بن الوزير الأجل والفقيه الأفضل أبي العلاء بن زهر، محل أبينا ـ برد الله ضريحه، وقدس روحه، يشكو ما يكابده من تشغيبك، ويقاسيه من تضريبك، فأمْسِكْ عليك رمَقَك، ولا يضرب لسانك عُنقَك، فأدركه حتى يقصر، وخذ من الأمور ما يَسُر، وإلا أنفذناك إلا ميورقة على قطع ألواح ودسر، والسلام على من اتبع الهدى، وتجنب مين الضلالة والردى والسلام»[19].

---

(17) ابن عذاري: م. س. ص 67.

(18) الحلل الموشية: ص 84.

(19) د. حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة، سنة 1954، المجلد الثاني ص 68. =

وفي ولاية الأمير أبي زكريا يحيى بن علي بن الحاج (بن مقور) (من محرم سنة 523هـ: صفر 524هـ)[20] يستعيد أبو مروان بعض مكانته ويستدعيه لعلاج مريض بالفالج يهمه أمره خارج مدينة إشبيلية ومع أن الجو كان شتاء والبرد قاسياً والريح شديدة إلا أن ابن زهر استجاب لطلب الأمير أبي زكريا[21] وهذا الوقت يصادف بداية ولايته لأن المحرم من سنة 53 يصادف آخر ديسمبر وبداية شهر يناير.

وفجأة تُنكب أسرةابن زهر فيُنفَى عميدُها الوزير أبي العلاء إلى فاس وتحدد إقامته بها ثم يسجن ابنه الوزير أبو مروان وينكل

= أعتقد أن هذه الرسالة أرسلت عندما كان الأمير أبي بكر والياً على إشبيلية من محرم سنة 518هـ: رجب 522هـ (ابن عذاري: م. س. ص 106) وقد وهم الدكتور حسين مؤنس عندما اعتقد أن أبي مروان بن زهر كان مؤدباً للأمير أبي بكر وتبعه الدكتور محمود مكي (وثائق تاريخية جديدة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد 1959، 1960) وتبعتهما في هذا الوهم (دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا) غير أن فحوى الرسالة لا يدل على أن أبي مروان كان مكلفاً بتربية الأمير أبي بكر، ومن الجائز أنه كان مكلفاً بمرافقة الأمير ومستشاراً له ويظهر ذلك من صفة أبي مروان من الرسالة (الوزير الأجل).

(20) بعد عزل الأمير أبي بكربن علي بن يوسف عين الأمير واجدي بن عمربن سير من شعبان سنة 522 إلى ذي الحجة من نفس العام وسبب عزله أنه تسبب في هزيمة المسلمين بعد انتصارهم في طلبيرة، فعزله علي بن يوسف وألزمه فديه من أسر (ابن عذاري: م. س. ص 80).

(21) ابن زهر: م. س. ص 135.

بعدد من شخصيات الأسرة التي تشغل مناصب هامة ويقتل بعض من حاشية ابن زهر.

صمتت المصادر عن الحادث وعن السنة التي حدثت فيها النكبة، والبعض أشار إليها بعبارة غامضة كابن عبد الملك ويذكر في الذيل عند الترجمة لأبي مروان بن زهر هذه العبارة «وأدركته مطالبة عند علي بن يوسف كانت سبب اعتقاله بسجن مراكش»[22].

أما ابن عذاري فقد ذكر أسباب هذه المحنة في عبارات مقتضبة ومضطربة، كما حدث اضطراب في ترتيب أوراق البيان المغرب مما جعلنا نعتقد أنها في سنة 511هـ إذ يقول: «وفيها فسد ما بين الزهري وابن زهر من الصداقة والصهر، ورمى كل واحد صاحبه بقاصمة الظهر، وبادر ابن زهر بمخاطبة علي بن يوسف، فبادر إليه الزهري إثر ذلك بنفسه فتكلم في ابن زهر ملء فيه، فأمر الزهري بسكنى مراكش، ثم ورد ابن زهر بعد ذلك إليها، وقد أظلم له النيِّر، وصعب عليه اللين فتلقى من أمره ما أصدره. ولم يُسمح له بالوصول، وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة»[23]، «يولى من قبله حاكم يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية، والزهري في كل ذلك تلوه ومقتد به، فما راعوا حق الحرمة، ولا أدوا شكر النعمة»[24].

---

(22) ابن عبد الملك: م. س. رقم 31، ص 18.

(23) ابن عذاري: م. س. ص 65.

(24) ابن عبد الملك: م. س، رقم 323، ص 162.

واضح من نص ابن عذاري أن هناك حادث كبير وقع بين أبي العلاء ابن زهر وبين صديقه وصهره القاضي أبي الحسن علي بن الزهري (ت 567هـ) الذي وصفه ابن عبد الملك المراكشي في الذيل بأنه «من أعيان بلده وأحد المتقدمين للرتب العلية» ويضيف ابن الزبير في صلته بأنه «كانت له قوة نفس في نصرة المظلوم وإرهاب الظالم، لا تصدر إلا عن دين متين، وخلوص عقد ويقين»[25].

فهل الخلاف الذي حدث بين أبي العلاء وصهره القاضي ابن الزهري يعود إلى نفس القضية التي سببت القطيعة بين أبي العلاء بن زهر والقاضي ابن منظور الخاصة بأملاك جده؟ فأبو العلاء بعد استقراره في إشبيلية حاول استرداد أملاك جده الفقيه أبي بكَر محمد بن أبي مروان التي استصفاها ابن عباد أو التي أنزلها الفقيه أو حبسها لبعض أهل إشبيلية أو نواحيها عند اضطراره لمغادرة إشبيلية، وعرضت هذه القضايا على قاضي إشبيلية ابن منظور الذي لم يستطع أن يُدْلِي فيها برأي قاطع نظراً لنفوذ أبي العلاء ومنزلته عند أمير المسلمين، فعرض الأمر على قضاة قرطبة الذين قضوا برفض دعوى ابن زهر وعدم أحقيته في استعادة هذه الأملاك التي مضى عليها زمن طويل وهو لا يملك ما يؤكد هذه الملكية وكان على رأس هؤلاء القضاة أبي الوليد بن رشد، وابني عتاب[26].

---

(25) ابن الزبير: صلة الصلة، رقم 200، ص 100.

(26) انظر فتاوى ابن رشد، تحقيق د. مختار بن الطاهر التليلي، جـ 1 مسألة رقم 30، ص. ص 202 :205، ورقم 72 ص. ص 525 :529، رقم 82، 83 ص. ص 325، 349.

ربما أراد أبو العلاء أن يضغط على الزهري للحكم في هذه القضايا لصالحه مستغلاً ما بينهما من علاقة صداقة وصهر فرفض ابن الزهري لما اتصف به من نزاهة، فانطلق لسان أبي العلاء الحاد الذي يتصف به، فقد تحفظ ابن أصيبعة عند الثناء على أبي العلاء بقوله «لولا بذاءة لسان وعجلة إنسان»[27].

وأبو مروان بن أبي العلاء يذكر في كتابه التيسير أن غضب الأمير علي بن يوسف بسبب مقالة لأبيه. يقول «نالني تنكيد شديد بامتحان علي لنا لقولة حقدها على الشيخ أبي - رحمه الله - فأمر فينا بكل وجه من وجوه الانتقام، ونالني نكد عظيم على غير اعتياد[28].

إذاً الذي أثار أمير المسلمين على أبي العلاء وأسرته مقالة وصلته، فهل هو الشعر الذي قاله في حق الفيلسوف ابن باجة وصديقه الوزير مالك بن وهيب جليس ومستشار أمير المسلمين والذي يقول فيه:

لا بد للزنديق أن يصلبا   شاء الذي يعْضُدُه أو أبى

وكان الذي يعضده ويسانده مالك بن وهيب[29].

وهوجم مالك بن وهيب بأشعار منها.

دولة لابن تاشفين علي   طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها   من خباياه مالك بن وهيب[30]

---

(27) ابن أبي أصيبعة جـ 3، ص 105.

(28) ابن زهر: م. س، ص 233.

(29) المقري: نفح الطيب، جـ 3، ص 479.

(30) ن. م.

ولم يسلم أبو العلاء بن زهر من سعاية الفتح بن خاقان وتصمت المصادر عن الحادث أيضاً الذي وقع بينهما وأدى إلى إطلاق لسان الفتح بن خاقان في حق ابن زهر وكتابة رسالة إلى أمير المسلمين يشكوه فيها مستغلاً نقطة الضعف عند الأمير المرابطي وهي خشيته الشديدة من الله، فهدده ابن خاقان في رسالته لأمير المسلمين بأنه سيكون خصمه أمام الله تعالى إذا لم يبت في شكواه يقول: «وهذا ابن زهر الذي أمـرَرْتَه رسَناً، وأوضحت له إلى الاستطالة سنناً، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته، ولا تمادى على غِيه إلا حين لم تُنْهِه، أو نهيتَه، ولما علم أنك لا تُنكر عليه نُكراً، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مَكْراً، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه، وسرى إلى ما شاء بِعُدْوانِه، ولم يراقب الذي خلقه، وأمد في الحظوة عندك طَلَقَه، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى، لأنه مكَّنـك لئلا يتمكن الجور، ولتَسْكن بك الفلاةَ والغورَ، فكيف أُرسلت زمامه، حتى جرى من الباطل في كل طريق، وأخفق به كل فريق» وفي آخر الرسالة يخيفه من يوم الوقوف بين يدي الله فيقول: «فبم تحتج معي لديه، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه، أترى ابن زهر ينجيك في ذلك المقام أو يحميك من الانتقام؟ وقـد أوضحت لك المحجة لتقوم عليك الحجة»[31].

ولكن هناك حدثان مهمان في نظري أديا إلى ما وصلت إليه أسرة بني زهر، الحادث الأول: حادث تسمم الأمير أبي الطاهر تميم والثاني، هزيمة المرابطين في موقعة قليبرة.

---

(31) المقري: م. س. جـ 2 ص 245.

فعندما اكتشف أبو مروان بن زهر أن سبب مرض الأمير أبي الطاهر تميم أطلق لسانه في وجه المحيطين بالأمير وكانت بينهم زوجته الحرة حواء يقول في التيسير: «ولم أتمالك أن صحت وكيف يبرأ وأنتم تسقونه ما فيه هلاكَه وهو هذا (يقصد الماء) ونصحني أحد عبيده فلم أجد معيناً من نفسي على السكوت، وتابعت القول فظهر لي الغضب من زوجته حواء ومن خوادمها، وأعقب ذلك سعياً علي وخزياً لي، فلم يصرفني شيء من ذلك عن قول الحق، وعزم علي بعض أصحابي في السكوت والعودة إلى حظوتي، فرأيت أن ذلك ضرب من التلبيس فلم أجب إليه»[32].

وإذا علمنا من هي حواء لأدركنا خطورة موقف أبي مروان من شيوع مقالته، فالحرة حواء - هي أرملة الأمير سير بن أبي بكر الذي تولى إشبيلية بعد قضائه على دولة المعتمد بن عباد سنة 484هـ إلى وفاته فجأة سنة 507هـ مدة 23 سنة، بعد أن حضر حفل زفاف ابنته[33] فاطمة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف وبعد أن ودع زوجته الحرة حواء. إذ شعر بمرض حاد لم يمهله وتوفي على أثره[34]. وكانت الحرة حواء في نفس الوقت ابنة عم

---

(32) ابن زهر: م. س. ص 98.

(33) كتبت خطأ في ابن عذاري، ص 56 والصحيح ما أثبته من ابن عذاري أيضاً ص 105.

(34) يقول ابن عذاري ص 56 أن سير بن أبي بكر خرج زافاً بنته فاطمة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ومشيعاً لزوجه حواء بنت تاشفين، وكان تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه، لأنه لما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه علي. فخرجت حواء وابنتها (في ابن =

زوجها الأمير سير، وابنة عم زوجها الثاني أبي الطاهر تميم وأمير المسلمين علي بن يوسف الذي زوجته ابنتها فاطمة بنت سير، وكانت الحرة حواء أديبة وشاعرة جليلة ماهرة، تحضر في مجلس الكتبة والشعراء بمراكش تحاضرهم فيه[35]. وهي التي مدحها الأعمى التطيلي في عدة قصائد[36]. ووصفها ابن عذاري بأنها «ذات نباهة وخطر».

بعد وفاة زوجها الأمير سير بمدة تزوجها الأمير أبا الطاهر تميم، فلما عين والياً على إشبيلية سنة 516هـ رفضت الإقامة في دار الإمارة التي سبق أن سكنتها مدة ثلاث وعشرين سنة فترة ولاية زوجها الراحل الأمير سير على إشبيلية، ولكن الأمير تميم أجبرها على سكناها فرفضت متعللة بقسم أقسمته أمام قبر زوجها عند دفنه بأنها لن تعود إلى سكنى دارها بعد وفاته، فاضطر الأمير أبو الطاهر أن يطلب رأي قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد، الذي أفتى بأنه لا شيء على هذا القسم وعليها أن تعود لسكنى دار الإمارة مع زوجها الأمير تميم[37]. فاضطرت إلى التخلص منه

= عذاري أختها، والصحيح ما أثبته) من إشبيلية فلم يعهد مثل ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجم الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو، فلما جن الليل نزل بالأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين مغص، تزيد عليه حتى قضى رحمه الله عند انصداع الفجر».

(35) ابن عذاري: م. س، ص 57.

(36) انظر ديوان الأعمى التطيلي.

(37) فتاوى ابن رشد، جـ 2 مسألة 395، ص. 1223، 1224.

تقول الرسالة «وكتب إليه [أي ابن الوليد بن رشد] رضي الله عنه ـ الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ـ أصلحه الله ـ من =

على ما يبدو لكراهتها سكنى دار زوجها السابق التي عاشت فيها مدة طويلة.

ولما رفض أبو مروان السكوت عن الحادث سعت ضده حواء وهددته فلم يرتدع، ونصحه بعض أصدقائه فلم يستجب يقول

= مدينة إشبيلية يسأله في يمين حلفت بها زوجه الحرة حواء بنت تاشفين ـ صانها الله ـ إثر موت زوجها الأول قبله، ونصها من أولها إلى آخر حرف منها ـ بسم الله الرحمن الرحيم، ما تقول رضي الله عنك ـ في امرأة توفي عنها زوجها، وكان ساكناً معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه، إذ كان أميراً فيه، فلما وضع في نعشه وخرج من دار الإمارة إلى قبره، خرجت تتبع نعشه، فلما فرغ من دفنه وهي على شفير قبره قال لها قائل، قومي وارجعي إلى دارك، فقالت مجيبة له: إلى أي دار تعني؟، قال لها: إلى دارك المعروفة التي خرجت منها فقالت: ثلث مالي على المساكين صدقة، وصوم سنة يلزمني، ورقيقي أحرار لوجه الله، لا رجعت إلى تلك الدار أبداً، أين الوجوه التي كنت أعْرف فيها؟، وأسكنها معهم؟ ولما كان بعد زمان تزوجها أمير تلك البلدة الساكن في دار الإمارة فجبرها على السكنى معه فيها، ولم يوسعها في ذلك عذراً، وقد كانت أخرجت الثلث من مالها بعد هذه اليمين لحنث آخر لزمها في يمين أخرى قبل سكنى الدار، وزال عن ملكها من كانت تملك من الرقيق في وقت اليمين المذكورة، أَجِبْنَا في ذلك موفقاً مأجوراً مشكوراً إن شاء الله تعالى.

فجاوب أدام الله توفيقه وتسديده، على ذلك بما هذا نصه: تصفحت السؤال الواقع من بطن هذا الكتاب، ووقفت عليه، ولا حنث على هذه المرأة الحالفة في رجوعها إلى سكنى دار الإمارة مع زوجها الأمير في ذلك البلد، لأن الظاهر من أمرها أنها إنما كرهت الرجوع إليها على غير الحال التي كانت عليها مع زوجها المتوفى.

«فظهر لي الغضب من زوجته حواء، ومن خوادمها وأعقب ذلك سعياً علي وخزياً لي، فلم يصرفني شيء من ذلك عن قول الحق، وعزم علي بعض أصحابي على السكوت والعودة إلى حظوتي، فرأيت أن ذلك ضرب من التلبيس فلم أجب إليه»[38].

وفي بداية عام 524هـ حدث حادث جلل نال من هيبة المرابطين وجعلهم موضوعاً لسخرية الأندلسيين، وهو هزيمتهم في موقعة قلييرة Cullera على يد ألفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك ليون ونبرة وهو الذي سبق أن عاث في الأندلس مدة عام وثلاثة أشهر 519هـ: 520هـ[39]. وذهب أكثر جيش المسلمين، فبلغ القتلى والأسرى اثني عشر ألفاً، فلما علم الأمير علي بن يوسف بخبر الهزيمة أمر بعزل قائد المعركة أبو زكريا يحيى بن علي بن الحاج (بن مقور) والي إشبيلية، وأمر كاتبه أبي مروان بن أبي الخصال بالكتابة إلى لمتونة يعنفهم على هذه الهزيمة، ولكن ابن أبي الخصال أفحش في هذه الرسالة على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة؛ وهذه الرسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها، وهي تكشف عن الحقد الدفين الذي امتلأت به قلوب الكثير من أهل الأندلس على المرابطين، وتكشف عن مشاعر هؤلاء الحانقين بصورة لا تحتاج إلى بيان أكثر، وتبين

---

(38) ابن زهر: م. س ص 98.

(39) خاطب النصارى المعاهدين من أهل غرناطة ألفونسو المحارب وأطمعوه في خيراتها فاستجاب لطلبهم وعاث في أنحاء الأندلس انظر ابن عذاري ص. ص 70، 71، ابن الخطيب: الإحاطة جـ1، ص 114، وعن موقعة قلييرة انظر ابن القطان: نظم الجمان ص 109، وابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص 114، 120.

الحجج التي كانوا يتذرعون بها في الحملة على المرابطين، وما كانوا يرددونه في مجالسهم إذا خلا بعضهم إلى بعض، وتناجوا بما تضمه جوانحهم من كراهية تجاه المرابطين[40]، خصوصاً أنه سبقت هذه الهزيمة ببضعة أشهر هزيمة جيش إشبيلية التي تسبب فيها أميرها عمر بن سير في ذي الحجة سنة 522هـ عند حصن طلبيرة فعزله الأمير علي بن يوسف وأمره بفداء الأسرى من ماله[41].

عين الأمير علي بن يوسف على إشبيلية الأمير أبا حفص عمر بن علي بن الحاج (بن مقور) بدل أخيه أبي زكريا يحيى، وفي مراكش سمع بالخلاف الذي حدث بين أبي العلاء بن زهر وصديقه وصهره القاضي أبي الحسن الزهري واتهاماتهما وما قيل في حق أمير المسلمين والمرابطين، ويبدو أن هذا الكلام كان قاسياً وغير متوقع قوله منهما لتمتع أسرتيهما بنعم المرابطين وعطفهم حتى أن ابن عذاري يقول مستغرباً «فما راعوا حق الحرمة، ولا أدوا شكر النعمة»[42].

وصل الأمير أبي حفص عمر إلى إشبيلية في ربيع الأول سنة 524هـ وأخبار هزيمة أخيه وتندر أهل إشبيلية وخاصتها على

---

(40) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص. ص 176، 177، كتابنا: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 260.

د. حسين مؤنس: نصوص سياسية، وثيقة رقم 2 ص. ص 117، 118.

(41) ابن عذاري: م. س. ص 80.

(42) ابن عذاري: م. س. ص 65.

المرابطين بترديد رسالة ابن أبي الخصال يوغرُ صدره، وسارع حساد ابن زهر في الإيقاع بهم عنده، فلما برز أهلها لاستقباله وعلى رأسهم الوزير أبي مروان بن زهر وصاحب المدينة خالصة بن زهر، وأعيان إشبيلية للسلام عليه، فلما وقعت عيني الأمير على أبي مروان استهزأ به وأمر بزج صاحب المدينة في السجن. وتتبع حاشية ابن زهر بالتذليل يقول ابن عذاري: -

«وفي هذه السنة صرف علي بن يوسف أمير المسلمين الأمير أبي زكريا يحيى بن علي عن إشبيلية، وقدم أخاه أبا حفص عمر والياً عليها، ولما وصل الأمير أبو حفص إلى إشبيلية برز إليه أهلها وخرج الوزير أبو مروان بن أبي العلاء زهر وكان أبوه أبو العلاء مستوطناً بفاس بالأمر، فلما رآه أصغره وقصر به، وترجل صاحب المدينة خالصة بن زهر فأخذ بيده مسلماً عليه، فلما أعلم به أمر عليه، فألقيت عمامته في عنقه وجر إلى السجن، فتقلقت نفوس الحاشية واستشعروا الشر، وجلس الأمير أبو حفص عشية ذلك اليوم في رحبة القصر، فاستحضر من حاشية ابن زهر رجلين متلبسين بأمره، فأمر بضرب أعناقهما وطيف برمحه على أسواق المدينة، وذهب أدب ابن نهية العتاد، وأقبل أدب الحجاج، فتثقف البلد وتمهد وسكن الإرجاف، وفر المريب، وجاء البريء وأقبل الأمير أبو حفص على تتبع هذه الحاشية، وجعل غرضه الانتقام فيهم والتشريد لهم»[43].

ويذكر أبو مروان بن زهر مطاردة الرجال المرابطين له في كتابه التيسير فيقول «ثم أني في الغد احتجت إلى الانتقال فانتقلت

---

(43) ابن عذاري: م. س. ص. ص 65، 66.

راكباً والنكد لا يفارقني في ذلك كله والذعر والتوقع ملازمان لي»[44] ثم أصيب بحمى وغيبوبة نتيجة إصابته في صدره ورأسه فلما استعاد ذهنه سأل عن أبيه وابنه أبي بكر فأخبروه بإرسالهم إلى العدوة، ويضيف «ثم غلبني الذعر من علي وخشيت أن أقتل فوصيت بأن يخفى أمري ولا يعلم بي أحد أني حي»[45].

ويبدو أن أبا مروان بن زهر اعتقل بعد قليل ورحل إلى سجن مراكش في نفس العام لأنه يذكر أنه استدعي في سجنه لفحص الأمير وانودين بن سير بن أبي بكر الذي كان والياً على السوس وسجلماسة سنة 524 واشترك في معركة البحيرة التي انتصر فيها المرابطون على الموحدين في رجب سنة 524.

نخلص من هذا البحث إلى أن أبا العلاء وابنه أبا مروان قد نكبا في سنة 524هـ وكان السبب في نكبتهم هو زلة لسان أبي العلاء التي وصفها ابن أبي أصيبعة واستغلالهم لمناصبهم في محاولة الاستيلاء على ما لايستحقون وعدم محافظتهم على سر مهنتهم عندما يطلعون على أسرار بعض المرضى خصوصاً ما كان يتعلق بأمراء المرابطين.

---

(44) (45) ابن زهر، م. س. ص 234.

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، بيروت 1956.
- الأعمى التطيلي: ديوانه.
- ابن بسام: الذخيرة، قسم 2، المجلد الأول، تحقيق د. إحسان عباس.
- د. حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مجلد 2، سنة 1954.
- ابن الخطيب: الإحاطة، تحقيق محمد عبد الله عنان.
- ابن رشد: الفتاوى، تحقيق د. مختار التليلي، بيروت.
- ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط 1957.
- ابن زهر: التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق د. ميشيل خوري، المنظمة العربية للتربية والعلوم، دمشق 1983.
- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، سفر 1، تحقيق د. محمد بنشريفة.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، جـ 4، تحقيق د. إحسان عباس.

- د. عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، بيروت 1988.
- مجهول: الحلل الموشية، تحقيق زكار، وزمامة، الدار البيضاء 1972.
- د. محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة 1959.
- المقري: نفح الطيب، جـ 2 تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968.

بيـن ابـن العربـي فـي العواصم والشـاطبي فـي القواصـم(*)

القاضي أبو بكر بن العربي الإمـام الحافظ، ختـام علماء الأنـدلس، آخر حفـاظهـا، كـان من أهـل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، والجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، نافذاً في جميعها قدم بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يُدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، هذا بعض ما قاله ابن بشكوال[1] في ابن العربي.

أما ابن الإمام[2] صاحب سمط الجمان فقال عنه: «بحر العلوم وإمام كل محفـوظ ومعلوم»، بينما يصفـه الفتح بن خـاقان[3]

(*) بحث أُلقي في الملتقى الفكري الثاني لآسفي ـ الاحتفال بذكرى الإمام الشاطبي (28 -29 مايو 1989).

(1) ابن بشكوال: الصلة، جـ 2، رقم 558.

(2) ابن سعيد: المغرب، جـ 1، رقم 177.

(3) الفتح بن خاقان، المطمح ص 82.

وله ترجمة في ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 4، رقم 626، والضبي: بغية الملتمس رقم 179.

ابن فرحون: الديباج ص 281، النباهي: المرقبة العليا ص 105.

المقري: نفح الطيب، جـ 2، ص 25.

بـ «علم الأعلام، الطاهر الأثواب. . . سقى الله به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف».

والإمام أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي العلامة المحقق، من أكابر الأئمة المتفننين الثقات[4]، وللأسف فإن الشاطبي لم يحظَ بالعدد الكبير الذي ترجم للقاضي ابن العربي، وربما يعود ذلك إلى أن الفترة التي كان يعيشها الشاطبي في مملكة غرناطة كانت تطغى عليها شخصيات أدبية مرموقة شغلت معاصريها بهم، منهم لسان الدين بن الخطيب، ومنافسُه الوزير ابن زمرك.

وعلى العموم فإننا أمام شخصيتان فريدتان، قلما يجود الزمان بمثلهما، فهما من الشموس المضيئة في الغرب الإسلامي، والتي امتد تأثيرها إلى المشرق.

لا شك أن الشاطبي تأثر كثيراً بكتب ابن العربي خاصة كتابه العواصم، فأي باحث يلفت نظره ما بين العواصم والاعتصام من تواصل وتوارد خواطر، واتفاق كثير من موضوعات الاعتصام مع العواصم. حتى كلمة الاعتصام التي وردت عند ابن العربي ربما تكون ألهمت الشاطبي عنوان كتابه، فابن العربي لم يستعمل كلمة الاعتصام إلا عندما يتحدث عن البدع. فيقول: «وأنا أبين بفضل الله وجه الاعتصام من هذه الضلالات»[5].

ولا شك أن ظروف كتابة هذين المصنفين كانت متشابهة إلى

---

(4) ابن فرحون: م. س. ص. ص 46، 47، المجاري: البرنامج ص 116.

(5) ابن العربي: العواصم جـ 2، ص 241 تحقيق د. عمار طالبي، وذكرها أيضاً عندما اصطدم من المشرق بالقول بالإمام المعصوم ص 60.

حد كبير، فابن العربي أملى العواصم في شعبان سنة 536هـ أي قبل وفاته بفترة قصيرة، وهذه الفترة تعتبر من أعصب المراحل التي مرت بها دولة المرابطين، فقد اشتدت حركة الموحدين ونجحوا في زعزعة الأمن وإشاعة الاضطراب في المغرب، وساعدتهم عدة ظروف كانت أهمها اقتصادية بالدرجة الأولى، وسياسية بالدرجة الثانية، إذ توالى القحط وهجوم الجراد والمجاعة عدة سنوات متتالية من سنة 535هـ: 540هـ، وتداعت جبهة الأندلس أمام هجمات النصارى التي استغلت فرصة سحب عدد كبير من فرق المرابطين لمواجهة الموحدين بالمغرب، ونتيجة لهذه الأحداث انتهزت جماعة من المتصوفة التي عرفت بالمريدين هذه الأحداث، وبدأت في إثارة الاضطرابات في بعض جهات الأندلس خصوصاً في منطقة الغرب بعد إشخاص بعض زعماء المريدين إلى العاصمة، والزج ببعضهم في سجون مراكش وقبيل كتابة العواصم بشهور معدودة توفي بمراكش زعيمان كبيران من زعماء المتصوفة، إمامهم أبو الحكم بن برجان، والصوفي الكبير أبو العباس بن العريف، مما كان له رد فعل كبير على سير حركة المتصوفة في الأندلس بعد أن تولى زعامتها أبو القاسم أحمد بن قسي الذي كان متأثراً إلى حد كبير بمهدي الموحدين، فتسمى بالمهدي والإمام، وتتابع الناس إليه بالرحيل، وكثر أتباعه والمعجبين به[6].

---

(6) ابن الأبار: الحلة السيراء جـ 2، ص 197.

وعن حركة المريدين بتفصيل انظر كتابنا الأندلس في نهاية المرابطين.

وكانت إشبيلية مسرحاً لأحداث دامية بعد أن علم المريدون بوفاة إمامهم ابن برجان في مراكش وموقف الأمير علي بن يوسف العدائي منه[7].

في هذه الفترة كثر الجدل حول رسائل إخوان الصفا، وغيرها من كتب الباطنية والفلسفية، وخاض فيها العلماء، واستغرقت طلبة العلم، وشدت انتباههم وكثرت تساؤلاتهم.

كل هذه الظروف وغيرها من أحداث اعتبرها ابن العربي قواصم قصمت وحدة المسلمين، وأججت نار الفتنة التي أتت على حضارة البلاد، وفتحت الباب على مصراعيه لأعداء الإسلام ليسلبوه حصونه ومدنه، وقواصم شغلت المسلمين عن الاعتصام بحبل الله، بالرغم من القواصم المشابهة التي حدثت للمسلمين في الصدر الأول ولم يتعظ منها اللاحقون، فانبرى ابن العربي في شعبان من سنة 536هـ/ 1141م في إملاء القواصم التي مرت بتاريخ المسلمين، وتفنيدها، وبيان زيف الكثير من المقولات والتحريفات التي ألصقت بالإسلام وتاريخه، معتصماً بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام، موظفاً إمكاناته وذكائه وعلمه الغزير في نقده، وإفحام المشككين وأصحاب البدع والضلالات. يقول: «وأعلام الحق وإن كانت خفقت، فقد انتشرت ألوية الباطل، واستشرفت، والناس أتباع كل ناعق، لا يفرقون بين السابق واللاحق، وأبناءُ ساعتِهم، لا آباء عاقِبتِهم، أشقت عليهم العواصم السابقة، وحلقت فوقهم العواصم المتلاحقة، فإن أكبوا على ما هم فيه هلكوا، وإن لَمَحُوا عُلُواً

---

(7) د. عصمت دندش: ن. م.

اعتلقوا النجاة وأدركوا. ولكل سابقة من القواصم لاحقة من العواصم، ونحن بتأييد الله ومعونته نرتقي في هذا المعراج إلى التمييز بين هذا الازدواج، ونبين ما فيه من قواصم المكر والاستدراج وعواصم الإنفاد والإخراج بفضل الله ورحمته وهدايته وعصمته لا رب غيره»[8]. . .

وإذا حاولنا معرفة ظروف كتابة الشاطبي للاعتصام نجدها تكاد تطابق الظروف السابقة فالشاطبي صنف كتابه في آخر حياته أيضاً، والقرن الثامن الهجري الذي عاش فيه الشاطبي، كانت مملكة غرناطة تجتاز مرحلة عصيبة، فهي في صراع مستحكم مع مملكة قشتالة التي عزمت على طرد المسلمين نهائياً من الأندلس يؤيدها ويعضدها النزعة الصليبية التي رفعت لوائها البابوية منذ حين، وساعدهم في نجاحهم هذا ما كان يسود المسلمين من فرقة، وموقف مملكة غرناطة المتذبذب، تارة تلتزم الجهاد مستعينة بأشقائها في العدوة المغربية التي تزودها بجماعة الغزاة، وتارة تقطع هذه الأواصر مؤلبة على السلطان المريني، وتارة تقف وحدها فتفترسها قشتالة مدينة مدينة، وتارة ترتمي في أحضانها لتستأسد على شقيقتها المغربية، فتتنازل عن حصونها وقلاعها، وفي جميع هذه الأحوال فقشتالة هي الفائزة تحصل على ما تريد إما حرباً أو خداعاً أو إتاوة. وحكام البلاد تنامت عيونهم عما يحيق بدولة الإسلام، وتصاممت آذانُهم عن صراخ مدنهم المتهاوية، وانشغل رجالات الدولة بالصراع على المناصب والتحاسد على السلطان، فغفلوا عن مصلحة العباد، واستيقظوا

(8) العواصم، جـ 2 ص 10.

للدس وتدبير المؤامرات والاغتيالات والشعب غارق في غيبوبة اللهو أو منقـاد إلى مشعوذ باسم الدين، أو لاجيء إلى معزل زاهداً في الحياة وما فيها[9].

ولكن بالرغم من هذه الظروف الكئيبة فالحياة العلمية عرفت ازدهاراً كبيراً، إذ أن العديد من الأيدي العاملة والعلماء الذين سقطت مدنهم هاجروا إلى غرناطة، فكانوا سبباً في نهضة الحركة الفكرية، كما كان لتشجيع ملوك بني الأحمر لهذه الحركة دور في تطورها، فكان من ملوكهم من ولع بالأدب والفنون كأبي الحجاج يوسف بن إسماعيل المتوفى سنة 805هـ وهو الذي أسس المدرسة النصرية أو اليوسفية على يد حاجبه أبي النعيم رضوان سنة 750 وحبس عليها رباعاً مغلة وجلب إليها الماء وكان يدرس بها أئمة من العلماء[10]، وكان الشاطبي من رواد هذه المدرسة؛ يحضر مجالس العلم بها، ويتصل بشيوخها[11].

وكان الشاطبي من ألمع فقهاء عصره بالأندلس، يتبوأ مركزاً علمياً سامياً، ويمتاز بتعمقه في علوم الشريعة وعلوم العربية. فلما تولى منصب الإمامة والخطابة حز في نفسه ما يراه من ضلالات يعيشها المجتمع، فحاول أن يُقَوِّمه من خلال منصبه بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الناس إلى أمور دينهم، ونبذ البدع التي استشرت. غير أنه لم يجد صدى لدعوته، يقول في مقدمة الاعتصام[12] «وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض

---

(9) عن مملكة غرناطة انظر كتاب محمد عبد الله عنان نهاية الأندلس.

(10) ابن الخطيب: الإحاطة جـ 1، ص. ص 507 :512.

(11) الشاطبي: الإفادات والإشارات تحقيق د. محمد أبو الأجفان ص 15.

(12) الشاطبي: الاعتصام، جـ 1، ص 14.

خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريباً من جُمهور أهل الوقت لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعاً في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا»؟.

وهذا هو نفس ما عاناه من قبله القاضي ابن العربي، عندما تولى منصب قاضي الجماعة وخطة الشورى بإشبيلية، فاصطدم بفقهاء جامدين أو متعالمين أو منافسين فأحس بالغربة بينهم غير أن طلبة العلم كانوا يحجون إليه من جميع أنحاء الغرب الإسلامي رغبة في علمه الوافر وآرائه المستنيرة، ووجد أنه لا بد من توجيه طلبته وإشباع فضولهم العلمي بالإجابة، وتوضيح ما أشكل عليهم، واستغلق على فهمهم، وسبر حيرتهم حول ما كان يروج من أقوال وأحداث، وهو يشير إلى ذلك في عواصمه[13] فيقول: «عطفنا عنان القول على مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى، وقد كانت على مرتبتها في الصدر الأول، ثم نزلت حتى كثرت البدع، وذهب العلماء، وتسترت المبتدعة بالشريعة، فتعاطت منصب الفقهاء، وتعلقت أطماع الجهال بها، فنالوها بفساد الزمان، وبنفوذ وعد الصادق في قوله «اتخذ الناس رؤوساء جهالاً، فَسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» ونحن نعقد في ذلك عواصم تكون رشداً من الضلال».

وقاسى الشاطبي من هذا النوع من الفقهاء الجهال أو المفتين المتساهلين في حق الشريعة من أجل مصلحتهم الخاصة، فكانوا

---

(13) العواصم: جـ 2، ص 489.

يبحثون عن أقوال العلماء في المسألة التي يسألون فيها ليجدوا قولاً موافقاً للسائل ولو كان شاذاً عن الجماعة «زاعمين أن الحجة في ذلك لهم قول من قال: اختلاف العلماء رحمة»، أو وقولهم: «كل مسألة ثبت لأحد العلماء فيها القول بالجواز ـ شذ عن الجماعة أولا ـ فالمسألة جائزة، وعلق بعضهم نحن مع الدراهم قلة أو كثرة»[14].

وكما يحدث لكل عالم مصلح ومجدد تعرض كل من ابن العربي والشاطبي للحساد والمشغبين عليهما، وحاولوا إثارة العامة، فيذكر ابن العربي في قواصمه «ولقد حكمت بين الناس فألزمتُهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يك يرى في الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا وثاروا»[15].

واعتبر ابن العربي حسد الفقهاء له ومحاربته قاصمة «فإن ظهر من له معرفة، أو جاءهم بفائدة في الدين وطريقة من سلف الصالحين، وسرد لهم البراهين، غمزوا جانبه وقبحوا عجائبه، وعيبوا حقه استكباراً وعتواً، وجحدوا علمه، وقد اسْتَيْقَنته أنفسهم ظلماً وعلواً، وسعوا في إخمال ذكره، وتحقير قدره، وافتعلوا عليه، وردوا كل عظيمة إليه»[16].

«وفي حين عودتي من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة، ونار ضلالهم لافحة، فقاسيتهم مع غير أقران، وفي عدم أنصار،

---

(14) الاعتصام، جـ 1، ص 18.

(15) العواصم: جـ 2، ص 400.

(16) ن. م. ص 495.

إلى حساد يطأون عقبي، فيدوسون ذيلي، فإذا دنوا عَدِموا جانبي، فتارة تذهب لهم نفس، وأخرى تنكسر لهم ضرس، وأنا ما بين إعراض أو تشغيب بهم، ولم يكن هناك من يقف الأمر على حد المناظرة فَيُنْصَر الحق، ويظهر الصدق»[17].

ومع أن موقف ابن العربي كان قوياً نظراً لمنصبه، ومكانته القريبة من أمير المسلمين علي بن يوسف، فقد تعرض منزله لهجوم العامة المدفوعة من أصحاب المصالح، فأحرقوا مكتبته ونجى ابن العربي بصعوبة[18].

والشاطبي أصيب بما أصاب ابن العربي، فاتهموه بالجهل والبدعة والضلالة، والتنطع في الدين، ومحاولة القيام على أولي الأمر، وزادوا بأنه من الروافض وأنه عدو لأولياء الله. يقول في اعتصامه[19] «فقامت عليّ القيامة وتواترت عليَّ الملامة، وفَوَّق إليَّ العتاب سهامه، ونُسبت إليَّ البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة».

لذلك فهو يستشير بعض المقربين من أصدقائه المحبين له، بشأن تصنيف كتاب يعرف البدع وخطرها على الناس والدين، ويقول في كتابه ما لم ينجح في تبليغه للناس أثناء تولية منصب الإمامة والخطابة فشجعوه لأنهم «رأوا أنه من العمل الذي لا شبهة في طلب الشرع نشره، ولا إشكال في أنه بحسب الوقت من أوجب الواجبات»[20].

---

(17) ن. م. ص 337.

(18) ن. م. ص 400.

(19) الاعتصام، جـ 1 ص 16.

(20) ن. م. جـ 1، ص 28.

وابن العربي والشاطبي تحدثا عن نفسيهما من خلال كتابهما، فأبو بكر يترجم لنفسه ويتحدث عن حياته وأسفاره، ويلذ له أن يسجل ما يراه وما وقع له، فهو يتحدث في جميع مصنفاته تقريباً عن رحلته ويشير إلى أشياء كثيرة حدثت له، ويفخر بذلك، ويعتز بلقائه للعلماء والفقهاء من كل مذهب ومن كل فرقة، وبدخوله الأمصار وتجواله، ولا يغفل عن مدح نفسه، وذكر ما أبداه خصومه له في المشرق من إعجاب ومحبة وكانت مناظراته تنتهي دائماً بانتصاره على خصومه ودحض حججهم رغم صغر سنه[21].

الشاطبي لم يرحل إلى المشرق لطلب العلم، لكنه يبين في الاعتصام شغفه بالعلم، وتدرجه في تلقيه ومعرفة وفهم مقاصد الشريعة، ويفخر هو الآخر باستيعابه للكثير من الكتب وقدرته على الخوض فيها يقول «لم أزل منذ فُتِقَ للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته وشرعياته وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعاً دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والإمكان وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لججه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء حتى كدت أتلف في بعض أعماقه، أو انقطع في رفقتي التي بالأنس بها، تجاسرت على ما قدر لي، غائباً عن مقال القائل وعذل العاذل، ومُعْرِضاً عن صد الصاد ولوم اللائم إلى أن مَنَّ عليَّ الرب الكريم الرؤوف الرحيم، فشرح لي من معاني الشريعة ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي القاصرة أن كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا في سبيل الهداية

---

(21) العواصم جـ 2، ابتداءً من ص 14.

لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يعتد به فيه، وأن الدين قد كمل»[22].

ابن العربي يبدأ كتابه بداية الأستاذ المحاضر لطلبته المستمعين له، المستعدين لكتابة كل ما يتفوه به[23].

بينما نجد الشاطبي يتوجه بكتابه إلى الصديق الوفي، وكأنه يعتبر كل قارىء لكتابه صديقاً له يذاكره ويتحدث معه، ويبدو أن هذا طابع الشاطبي في كتبه، فكتابه الإفادات والإشارات يبدأ بنفس المقدمة، أما الموافقات فيوجهه إلى الباحث[24].

كتاب العواصم يعد من كتب التراث الفلسفي النادر وهذا ينفي مزاعم اتهام المرابطين بحرب الفلسفة، تفوق ابن العربي في نقد الفلسفة اليونانية وروحها الوثنية النظرية المجردة[25]، وكان مدركاً تمام الإدراك الاصطلاحات الفلسفية المختلفة من القوة والعقل والصورة والهيولى[26] وغيرها من العبارات الفلسفية الفنية فابن العربي أظهر في هذا الكتاب باعه الطويل في شتى علوم المعرفة من فلسفة، وفلك وجدل وفقه وتصوف وحديث وتاريخ، وأبان

---

(22) الشاطبي: الاعتصام جـ 1، ص. ص 8، 9.

(23) انظر مقدمة العواصم.

(24) انظر مقدمة الاعتصام والإفادات وكتاب الموافقات.

(25) انظر الدراسة الممتازة للدكتور عمار طالبي آراء كلامية لابن العربي (العواصم) جـ 1.

(26) الهيولى يعبر عنه الفلاسفة بأنه قوة في النفس صالحة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن موادها ـ ليس عنده إلا معلومات مترتبة على معلومات أخرى وعبر عنه ابن العربي كاستعداد الصبي للقبول.

عن تفوقه في النقد، فابن العربي كان محدثاً حافظاً عالماً بالصحيح والضعيف، عارفاً بالجرح والتعديل، علاوة على كونه من كبار الفقهاء والأصوليين الذين يزنون العقل بميزان، ولا يثقون به كل الثقة، ما دام بجانبه زمام من أزمة الحقيقة وميزان من موازينها المعصومة وهي النص القرآني، والسنة النبوية الصحيحة اللذان أمداه بالثقة المطلقة ولا يبقى إلا تفسيرهما أو بيانهما الذي تتدخل فيه الموازين العقلية والمقاييس الإنسانية أحياناً وهو من أئمة الفقه المجددين ومن الرواد الأوائل الذين أدخلوا علم الخلافيات للغرب الإسلامي.

ومنهج ابن العربي تغلب عليه صبغة نقدية ناقدة وواضحة فلم يفلت من نقده خصومه ولا أصحابه الأشاعرة والمحدثين والمؤرخين والأدباء والفقهاء، وليس من شك في أنه اكتسب هذه النزعة النقدية من شيخه الغزالي الذي برع في هذا المجال وتفوق فيه علاوة على تمكنه من علمه وثقته بنفسه وذكائه.

ونجد كتاب الاعتصام تغلب عليه الصبغة الفقهية، وانعكاس منهج الشاطبي في حبه لمقاصد الشريعة التي برع فيها وتأثره الكبير بكتابه الموافقات، وكُتب ابن العربي خصوصاً أحكام القرآن والعواصم. ذكر في بداية الاعتصام أن هدفه الأول كان البدع وتعريفها وحكمها، وترتيبها على أساس الاستحباب أو الكراهة أو التحريم وأنها ليست في رتبة واحدة، ولا على حكم واحد، غير أنه انساق في معظم كتابه متأثراً بابن العربي في سرد بعض آراء الفلاسفة في العقل وصفات الله والمكان وغير ذلك... إلا أنه لم يكن في مستوى ابن العربي الثقافي الرفيع في التحليل والنقد. ويغلب على الشاطبي صفة الواعظ في كتابته

للاعتصام ويستشهد بكثير من الأحاديث الضعيفة المتن أو الرواية، أو الموضوعة، خصوصاً فيما يتعلق بأحاديث الترغيب والترهيب التي تخص العبادات كالصلوات المفروضة، والنوافل المرتبة لأسباب وغيرها، وكالصيام المفروض أو المندوب على الوجه المعروف، ويعتذر في إتيانه بهذه الأحاديث بقوله «وليعلم الموفق أن بعض ما ذكر من الأحاديث يقصر عن رتبة الصحيح، وإنما أتِيَ بها عملاً بما أصَّله المحدثون في الترغيب والترهيب، إذ قد ثبت ذم البدع وأهلها، بالدليل القاطع القرآني والدليل السني الصحيح، فما زيد من غيره، فلا حرج في الإتيان به إن شاء الله»[27].

بينما نجد ابن العربي يحذر من الأحاديث الضعيفة مهما كان الغرض منها فهي كذب على الرسول عليه السلام، وانتقد شيخه الغزالي في كتابه الإحياء لاعتماده على مثل هذه الأحاديث، وحذر طلبته من الاعتماد عليها، أو ما ذكر منها في الكتب يقول في عواصمه: «ولا يُشتغل برواية الحديث من كل كتاب، فالباطل فيه كثير وما الصحيح من حديث النبي إلا كنقطة من بحر، وليحذر كتب الصالحين، ومن ينتمي إلى الوعظ، فإنهم لم يألوا في الكذب على رسول الله بقصد وبغير قصد، ولا كتاب يعول على حديث منها إلا كتاب ابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وهناد بن السري»[28].

أخذ موضوع التصوف حيزاً مهماً عند ابن العربي والشاطبي

(27) الاعتصام جـ 1 ص 88.

(28) العواصم، جـ 2 ص 496.

واستشهد الشاطبي كثيراً بابن العربي في عدة مواقف خصوصاً في هجومه على الذين غالوا في العبادة وترهبوا.

فابن العربي هاجم المتصوفة الغلاة ورد عليهم بسيرة الرسول عليه السلام التي تخالف سيرة الغلاة في العبادة والتقشف، فالرسول «كان يأكل الحلوى ويشرب العسل ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد» وقرر أن الدين الإسلامي خال من رهبانية المسيحية، ويأمر المسلم بأخذ حظه من متع الحياة، ويرجع إلى الله بقلب سليم، ومن أجل هذا كان ديناً متجاوباً مع الطبيعة البشرية التي لا يستقيم أمرها إلا بإشباع النواحي المادية والروحية معاً، وعدم إماتة جانب والقضاء عليه من أجل تغليب الجانب الآخر.

والشاطبي يهاجم هؤلاء الغلاة من منطلق ابن العربي ويستشهد بما قاله ابن العربي عن مسيرة الرسول عليه السلام ويتهم هؤلاء الغلاة بأن سلوكهم هذا لمجرد التشديد لا لغرض سواه، لأن الشرع لم يقصد إلى تعذيب النفس في التكليف وهو أيضاً مخالف لقوله عليه السلام «إن لنفسك عليك حقاً»، واتهمهم بنفس اتهام ابن العربي لهم بالجهل وعدم الإدراك وتأويل القرآن، والأحاديث النبوية، وأنكر عليهم طريقتهم التي ابتدعوها في الذكر الذي يشبه الغناء يقول: «وإلا فأين في الكتاب والسنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عالياً»[29]؟ وقد قال تعالى ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعتَدِين ﴾[30] والمعتدون في التفسير هم الرافعون أصواتهم بالدعاء.

---

(29) الاعتصام جـ 1 ص 363.

(30) سورة الأعراف آية 55.

أنكر ابن العربي اصطلاح العشق عند الصوفية، ولم يسلم شيخه الغزالي منه، وهو الذي بنى العشق على المحبة، وملأ به كتابه الإحياء على اعتبار أن الله موضوع الجلال والكمال فكيف لا يعشق؟ فبين أن هذا الاصطلاح لم يرد في ألفاظ الشريعة، ولا أساس له فيها، قال ابن العربي: «وللصوفية في إطلاق العشق على الله تجاوز عظيم، واعتداء كبير، ولولا إطلاقه تعالى المحبة ما أطلقناها، فكيف نتعداها إلى سواها من ألفاظ المُجَّان، وليس له أصل في الشريعة».

وأنكر الحلول والاتحاد والمشاهدة وما إليها من ألفاظ العشق والحرقة والفناء، وعاب على المتصوفة استغراقهم في التأمل والانقطاع عن الحياة لأن هذا ليس في سنن الله في خلقه ولا ينسجم مع الشرع.

ووجه نقداً شديداً لموقف الصوفية من المعرفة الذي يقول بأنه إشراق نور الله على القلوب، وفيض نفحاته عليها إذا صقلت وانشرحت وأن الحقائق والمعارف تتوقف على مبدأ الصقل وقطع العلائق فالتصفية مبدأ، والإشراق غاية، وتطهير القلوب سابق، وفيض نور العرفان لاحق، ابن العربي رأى في هذا الموقف الصوفي قاصمة أشد وأنكى من قاصمة من أنكر الحقائق، واتهم الغزالي الذي صدرت منه هذه الكلمات بأنها كلمات مرتدة إلى نزعة صوفية ومنحى باطني، وأن غلاة المتصوفة ودعاة الباطنية يقلدون المبتدعة في التعلق بالمتشابهات من الآيات والحديث، ويخترعون آثاراً ينسبونها للنبي ﷺ أو تخترع لهم ما يتناسب مع أغراضهم، ويموهون بها على الناس ليلعبوا بعقولهم ونفوسهم،

وتشبث الصوفية بظاهر قوله تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾[31] حيث أفاد ظاهر الآية أن التقوى هي أساس الأعمال، كلها أصل والمعرفة أو العلم ثمرة لها، واستندوا في ذلك أيضاً على قول الإمام مالك «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في قلب من يشاء»، وزعمت أن المعرفة أو العلم لا ينال إلا بطهارة النفس وتزكية القلب وقطع العلائق وترك الأسباب الدنيوية وادعت أن ذلك سبيل إلى كشف الغيوب، ورؤية الملائكة، وسماع أقوالها، والاطلاع على الأنبياء وسماع كلامهم، بل انتهوا إلى مشاهدة الله.

وانتقد ابن العربي ذلك بشدة وبين أن تجرد النفس أو القلب عن علائق المحسوسات لينتظم في عالم المعقولات لا يتصور. وأن العلم أصل للعمل، والمعرفة أساس بناء السلوك، لأن العمل مرتبط بالقصد والقصد مرتبط بالعلم، والدوام على العمل يرجع إلى دوام العلم، فالعلم والعمل متلازمان، فإذا علم الإنسان ولم يعمل أوشك علمه على الذهاب والزوال أو الضعف.

ويرى أن التقوى والعلم يشتركان في كونهما عملين من أعمال القلوب، والتقوى تزيد على العلم بظاهر الأعمال الصادرة عن الجوارح فالتقوى مأخوذة من الوقاية، ويقتضي ذلك أن يتقي الإنسان ربه بقلبه أي بمعرفته له، كي تظهر أو تصدر أعمال الجوارح التي تضع الموانع والسدود فوقاية العلم، أو المعرفة، سابقة لوقاية العمل، فإذا ما نقص العمل فما ذلك إلا دلالة على نقصان العلم وضعف المعرفة، واستند على الحديث الصحيح

---

(31) سورة البقرة، آية 282.

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» أي أن القائم بفعل الزنا لم يقدم عليه إلا بسبب ضعف علمه ومعرفته واعتقاده وحسم هذا الأمر بقوله «قد قام الدليل العقلي على أن العلم هو من العمل قبل العمل، وكذلك قام الدليل الشرعي وشهدت له التجربة على أنه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾[32] وأن صفاء القلب وطهارته مقصود شرعي إنما المستنكر أن صفاءه يوجب تجلي العلوم فيه بذاته[33].

كما ينكر ما يدعيه المتصوفة بالتجلي عند المقابلة بين الصافي والصيقل واللوح المحفوظ، فالتجلي عند ابن العربي لا يعود إلى الصفاء وليس نتيجة من نتائجه، وإنما يعود إلى خلق الله وفعله وإيجاده، أو إلى إلقاء الملك بأمره الكلمة في قلب النبي، ويعارض فكرة الفيض وابن العربي سبق ابن رشد في إنكاره للفيض، حيث اعتبر النفس خلقاً لله مباشرة وذهب إلى أن المعرفة العادية تكتسب عن طريق الحواس والتجربة[34].

الشاطبي يعتبر أقوال المتصوفة السابقة بدعة مذمومة إن وقع النظر فيه والكلام عليه بقصد جعله علماً ينظر فيه، وفناً يشتغل بتحصيله بتعلم أو رياضة، فإنه لم يعهد مثله في السلف الصالح، وهو في رأيه نظر فلسفي إنما يشتغل باستجلابه والرياضة لاستفادته أهل الفلسفة الخارجون عن السنة المعدودون في الفرق الضالة، فلا يكون الكلام فيه مباحاً فضلاً عن أن يكون مندوباً

---

(32) سورة فاطر آية 28.

(33) العواصم ص 23.

(34) العواصم ابتداءً من ص 15 :33.

إليه»[35] فالشاطبي ضد علم الفلسفة بينما ابن العربي يجد تعلمها ضرورياً ولكن شريطة التمكن من العلوم الإسلامية[36].

ويرى ابن العربي أن العقل لا يرد الشرع لأنه لم ترد في الشرع كلمة واحدة يردها العقل، بل إن العقل لا يخالف الشرع، والعقل له مجاله في العقليات كالتوحيد، أما الفقه وخاصة العبادات فإنها لا تعلل بعلل عقلية، لأنه إذا ما سلمنا بأصل الاعتقاد فإن الفروع العملية تبنى عليه، وتسمى أموراً تعبدية لا مقاصدها ومنافعها وإن لم تصل العقول[37].

والشاطبي يرى ألا يجعل العقل حاكماً بإطلاق، ويجب أن يقدم عليه الشرع لأن العقل في نظره ناقص عن الشرع، ولذلك قال اجعل الشرع في يمينك، والعقل في يسارك، تنبيهاً على تقدم الشرع على العقل، لأنه لم يصح تقديم الناقص حاكماً على الكامل[38].

وموضوع المهدي أو الإمام المعصوم عالجه كل من ابن العربي والشاطبي كلاً بطريقته وإن كان الشاطبي ركز معالجته على المهدي بن تومرت أو المهدي المغربي كما يسميه منكراً عليه إدعاءه العصمة، وناقداً لكل أعماله أو التعاليم التي نشرها، فيقول «ومن يدعي لنفسه العصمة فهو شبه من يدعي النبوة، ومن يزعم أنه به قامت السموات والأرض فقد جاوز دعوى النبوة وهو

---

(35) الاعتصام جـ 1 ص 278.

(36) العواصم، ص 109.

(37) العواصم ص 149.

(38) الاعتصام جـ 3، ص 206 وما بعدها.

المغربي المسمى بالمهدي»[39] واعتمد الشاطبي في مناقشة دعوى العصمة على ابن العربي، وكان ينقل من العواصم حرفياً ما قاله ابن العربي الذي لم يصرح باسم المهدي بن تومرت، وإنما كان ابن العربي يتكلم عنه بصفة عامة، فذكر أن ما يسمى بالإمام المعصوم كانت أول بدعة لقيها في رحلته إلى المشرق، وابن العربي يهزأ من زعمهم أن العقل لا يستقل بإدراك الحقيقة، ولا يستطيع الحصول عليها لكثرة الشبه ولوجود الاختلاف والاضطراب بين الناس في مذاهبهم واعتقاداتهم، ومن أجل ذلك وجب الرجوع والالتجاء إلى علم معصوم من الاختلاف، وإلى مصدر يمتلك وحده هذا العلم وهو ما سموه بالإمام المعصوم، فهو عندهم مصدر المعرفة والعلم الإلهي، ومنبع لأسرار الله في عباده، وعنده يُلتمس ما كان وما يكون وما سيكون، وفطن ابن العربي إلى ما في ذلك من القول بالحلول، أي أن الله سبحانه حالٌ في كل معصوم، وأن المبلغ في الواقع إنما هو الله بواسطة حلوله في آدمي هو الإمام المعصوم[40].

وقد تناول ابن العربي والشاطبي فرقة الخوارج بالتحليل والنقد وكان الشاطبي أكثر تفصيلاً وإسهاباً في شرح الفرق الخارجة على السنة والفرقة الناجية في رأيه.

وبعد فالملاحظة العامة هي طريقة ابن العربي الرفيعة في تناوله لأي موضوع واستعماله اللغة العربية السلسة والتمكن من علمه، فهو يدخل إلى المسألة المعالجة مباشرة دون مقدمات تبعد

---

(39) ن. م. جـ 2 ص 253، 263، جـ 3 ص 42، 85، 158، 218، 259.
(40) العواصم: ص. ص 61 وما بعدها.

القارىء عن الموضوع الأساسي، بعكس الشـاطبي الذي لم يستطع التخلص من صفة الإمام الخطيب الواعظ.

وأخيراً فإن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة متأنية عميقة، ومتخصصة لكي تعم الاستفادة، وبحثي هذا ما هو إلا خطوة حذرة، يلزمها دراسة أعمق ووقت أطول.

المصـادر والمـراجــع

- ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ 2 تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة 1963.
- ابن بشكوال: الصلة، الدار المصرية للنشر، 1966.
- ابن خاقان: مطمح الأنفس، الجزائر 1302.
- ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 1 تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1977.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، 1968.
- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف ط 3 القاهرة 1978.
- الشاطبي: الاعتصام، مصر 1913.
- الإفـادات والإشـارات، تحقيق د. محمـد أبـو الأجفـان
- الموافقات.
- الضبي: بغية الملتمس، مجريط، 1884.
- ابن العربي: العواصم، تحقيق د. عمار طالبي، الجـزائر 1974.
- د. عصمت عبد اللطيف دندش، ثورة المريدين.
- ابن فرحون: الديباج المذهب، القاهرة 1239.
- المجاري: برنامجه، تحقيق محمد أبو الأجفان.
- المقري: نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عبـاس، بيروت 1968.
- النباهي: المرقبة العليا. نشر ليفي بروفنسال 1948.

أدوار سياسية لنساء في دولة المرابطين(*)

احتلت المرأة مكانة متميزة في الحياة العامة والخاصة في عهد المرابطين ولم يكن هذا وليد قيام دولتهم، وإنما يعود ذلك إلى عادات وتقاليد القبائل الصحراوية، أو التي تعيش في البادية «الريف» فالمرأة تشارك في الرأي وتتمتع بحرية الحركة في مشاركة زوجها في عمله، خصوصاً الأعمال الخاصة بالزراعة والرعي.

وخروج المرأة سافرة في هذه المجتمعات لم يكن مستغرباً، وكان يبدو عادياً أيضاً في المجتمع الأندلسي الذي اعتاد رؤية المرأة سافرة تشارك في كثير من الأعمال العامة، خصوصاً في الطبقات الدنيا، سواء في المدينة أو الريف.

والمرأة في طبقة الخاصة، الغنية الارستقراطية «هي التي كان يفرض عليها الحجاب في العدوتين، ولها حياتها الخاصة، لا عمل لها إلا محاولة الحفاظ على زوجها أو اكتساب حبه في مجتمع عرف تعدد الزوجات والمحظيات، وإن لم يمنع ذلك من

(*) محاضرة ألقيت في الملتقى الثاني الإسباني المغربي للعلوم التاريخية بغرناطة 6 :10 نوفمبر 1989.

تدخل بعض من هذه النساء سواء الحرة أو المحظية في التأثير على مجريات الأمور والحكم[1].

وبوصول المرابطين إلى حكم المغرب والأندلس، وانتقال نسائهم معهم، وخروجهن سافرات كعادتهن، صدمت طبقة الخاصة في المغرب، خصوصاً التي لم تعتد على خروج المرأة، فكان هذا أحد الأسباب القوية التي استغلها بعض المتزمتين ضدهم، ووجدها المهدي بن تومرت فرصة سانحة لمهاجمة حكم المرابطين، واتهامهم بالخروج عن الإسلام، مستغلاً جهل العامة بالشريعة الإسلامية، واعتبر عبد الواحد المراكشي أحد رجالات الموحدين، وصاحب كتاب «المعجب»[2]، أن نساء المرابطين السبب القوي في زوال دولتهم، ويعتبر كتابه المصدر الوحيد الذي ذكر هذا السبب ثم نقله عنه المحدثون، والمعروف أنه ألف كتابه في بغداد لأحد وزراء الدولة العباسية، لذلك يبدو أنه حاول مجاملة هذا الوزير بالإشارة إلى ما كان يحدث في الخلافة العباسية بعد أن أصبح الخليفة مسلوب الفكر والإرادة ولم يكن له من رسوم الخلافة إلا اسمها.

وأعتقد أن هذا سبب ضعيف فالمرأة حاضرة في كل عصر، وفي كل دولة، قوية كانت أو ضعيفة، لها دورها الخفي أو الظاهر

---

(1) انظر كتابنا «الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين» الباب الثالث الخاص بالحياة الاجتماعية.

(2) عبد الواحد المراكشي يقول في المعجب ص 241 «واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور».

في الوقوف بجانب أو خلف الرجل، سواء حاكماً أو محكوماً، وفي اتخاذ القرار بطريق مباشر أو غير مباشر، خصوصاً إذا كانت جميلة وذكية، ويجد الباحث صعوبة كبيرة في معرفة هذه الأدوار وتتبعها بوضوح نظراً للتعتيم المتعمد من جانب المؤرخين حول المرأة، واعتبار الرجل المرأة حالة خاصة به، لا يجوز الكشف عنها، أو التأريخ لها، ويعتبر الحديث عن أي دور لها في حياته انتقاص من رجولته، وهذا الرأي لا ينطبق على فترة معينة، بل ينسحب على كل العصور الماضية والحاضرة.

وفي عهد المرابطين ذكرت بعض الأحداث عرضاً وبشكل مقتضب جداً عن مشاركة بعض النساء في سياسة الدولة المرابطية إيجاباً أو سلباً، ونظراً لغياب الحقيقة، فإننا نكون مضطرين إلى اعتماد هذه النتف الشحيحة، وقد أخذت ثلاث نساء كنماذج: الأولى حرة من قبيلة نفزة والثانية لمتونية والثالثة جارية.

لقد كان لنصائح الحرة زينب بنت إسحق الهواري النفزاوية زوجة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الحظ الأوفى في تأسيس وتدعيم ملكه، وأجمعت المصادر التي بين أيدينا على وصفها بالجمال والفطنة والذكاء، وإنها كانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور حتى كان يقال لها الساحِرة[3] وكان لها عدة تجارب سابقة في الزواج من زعماء قبائل وحكام، فزوجها الأول كان يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس

---

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ 4، ص 18. تحقيق د. إحسان عباس،
ابن خلدون: جـ 6، ص 376.
ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 134.

شيخ وريكة وهزرجة في دولة أمغارن «الشيوخ» في بلاد المصامدة[4]، وعندما تغلب بنو يفرن على وريكة، وملكوا أغمات وقتل زوجها، تزوج بها أمير أغمات الجديد لقوط بن يوسف المغراوي، ولم تهنأ بهذا الزواج طويلاً، فقد قتل هو أيضاً عندما استولى المرابطون على أغمات في 450هـ/ 1058م[6].

استقرت الأرملة الجميلة الصغيرة بأغمات وقد استولت على الأموال الضخمة والذخائر الكثيرة التي خبأها زوجها قبل أن يدهمه المرابطون، وتردد عليها أشياخ المصامدة وأمرائهم للزواج منها، ولكنها ردتهم جميعاً طامعة لما هو أسمى وأعلى إذ كانت تردد أنها لن تتزوج إلا من يحكم المغرب كله[7].

وكانت الأمور قد استقامت لأمير المرابطين أبي بكر بن عمر، وطاعت له معظم بلاد المغرب، فاتخذ من أغمات 460هـ/ 1067م مستقراً له، وأعلم بجمال زينب وما تقوله، فخطبها وتزوجها في ذي القعدة 460هـ[8] فأطلعته على الكنوز التي ملكتها، ووعدته بإمداده بالمال والذخائر لتدعيم ملكه. لكن الزوجة الجميلة الطموحة لم يطل زواجها من أمير المرابطين، إذ اضطر لطلاقها عندما قرر التوجه إلى الصحراء بعد أن بلغه

---

(4) ابن خلدون: م. س. ص 377.

(5) ن. م.

(6) الحلل الموشية، ص 23 تحقيق ذكار، زمامة.

ابن عذاري: م. س. ش 15، ابن أبي زرع: م. س. ص 29 ذكر أنها 449هـ.

(7) ابن عذاري: م. س. ص 18.

(8) ن. م.

اضطراب أمرها، والخلاف بين قبائل جدالة ومسوفة أصل أعياصهم وقوتهم، فخشي عليها من اصطحابها إلى الصحراء التي لم تعتد عليها، وهي المرفهة الجميلة، ولم يرد أن يتركها فريسة الوحدة والانتظار الذي لا يعرف نهايته ونصحها بالزواج من ابن عمه ونائبه على المغرب الأمير يوسف بن تاشفين، وزكاها عنده بقوله: «تزوجها فهي امرأة مسعودة»(9).

وفي واقع الأمر فإن دور زينب الحقيقي وطموحاتها، بدأته بزواجها من الأمير يوسف بن تاشفين، فقد وجدت فيه الشخص الذي تطلعت للاقتران به، لتحقق من خلاله كل أحلامها، فتزوجت به بمجرد انتهاء عدتها في شعبان 463هـ/ أبريل 1071م. يقول ابن عذاري: «فسرت به وسر بها، وأخبرته أنه يملك المغرب كله، فبسطت آماله، وأصلحت أحواله، وأعطته الأموال الغزيرة، فأركب الرجال الكثيرة، وجمع له القبائل أموالاً عظيمة، فجند الأجناد، وأخذ في جمع الجيوش من البربر، والاحتشاد بنفسه، وبتدبير زوجه زينب في كل يوم من أمسه»(10).

وبذلك لعب مال زينب ومساندتها له برأيها، ولنصيحتها في تمكين يوسف بن تاشفين من الحكم، وتدعيم قيادته، وتمثل ذلك في الخطة التي رسمتها لزوجها في لقائه بالأمير أبي بكر بن عمر عند عودته من الصحراء في ربيع الأول 465هـ/ 1072م، لاستعادة مقاليد الحكم بعد أن أصلح أمور الصحراء وأعاد الأمن إليها(11)،

(9) ن. م. ص. ص 20، 21.
ابن أبي زرع: م. س. ص 134.
(10) ابن عذاري: م. س. ص 22.
(11) ن. م. ص 42 الحلل الموشية، ص 25.

فعندما وجدت الأمير يوسف مهتماً لرجوع ابن عمه لاستعادة ملكه، وتحرجه من قتاله، نصحته باستدعاء أصحاب أبي بكر القادمين معه، والذين أسرعوا لرؤية العاصمة الجديدة مراكش، واستمالتهم بالمال والكسى الفاخرة والخيول المسومة وسائر النعم، ثم هونت عليه لقاء الأمير أبي بكر زوجها السابق لما كانت تعرفه عنه من طيبة قلب وتورع عن سفك الدماء، وسخرت أموالها في شراء الهدايا والتحف والطرف والثياب وكل ما يلزم في الصحراء ويبهر الأمير أبي بكر وأصحابه، وأشارت على زوجها الأمير يوسف بتغيير سلوكه الذي اعتاده منه الأمير أبي بكر وقالت له: إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك، فلا تخرج إليه ولكن بادره بهدية جليلة، فلا يقاتلك على الدنيا، فالرجل خير وابن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فإذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له غلظة ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدايا والخلع والثياب والطعام والطرف واستكثر من ذلك فإنه ببلاد الصحراء وكل شيء عندهم من هنا مستطرف[12].

لقد نجحت خطة زينب، ورجع الأمير أبي بكر إلى الصحراء، بعد أن تنازل عن حكم المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين، وعينه نائباً عنه، وتعهد يوسف له بألا يعقد عهداً إلا بعد إعلام الأمير أبي بكر، وبذلك خلص حكم المغرب للأمير يوسف،

(12) ابن عذاري: م. س. ص. ص 23، 26، الحلل الموشية، ص 27.
ابن أبي زرع: م. س. ص 134.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص 233 تحقيق ـ العبادي والكتاني.

بفضل زوجته زينب، يقول ابن عذاري فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك[13].

برحيل الأمير أبي بكر بن عمر، وانشغاله بالجهاد في بلاد السودان خلص ملك المغرب ليوسف بن تاشفين، فاستكمل فتح بلاده، وأخضعها لسلطانه وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين[14] واتخذت زينب الكتاب، وحاز الكاتب الأندلسي عبد الرحمن بن أسباط على ثقتها، فاستكتبه[15] وزاد نفوذها حتى بلغ من سلطتها أنها كانت تأمر بعزل القضاة وتعينهم، فقد ذكر القاضي عياض في ترجمة الفقيه القاضي أبي محمد عبد العزيز السوسي الصوفي بأنه امتحن على يد زينب، زوجة الأمير يوسف بن تاشفين، وطولب عندها، فسيق إليها مكبلاً[16] وقد لعبت بها الغيرة عندما مدح القاضي ابن خلوف[17] الحرة حواء زوجة الأمير سير بن أبي بكر، ووصفها بالجمال الفائق، وفضلها على سائر النساء فأمرت بعزله،

---

(13) ابن عذاري: م. س. ص 25.

(14) ن. مم. ص 27، الحلل الموشية، ص 29.

(15) ابن الخطيب: الإحاطة، جـ 3، ص 523 ويضيف ابن الخطيب أن أمير المسلمين يوسف أقره كاتباً له بعد وفاة زينب فحاز جاهاً ومالاً وشهرة إلى وفاته بسبتة 487هـ/ 1094 هـ.

(16) عياض: المدارك، جـ 8، ص 168 تحقيق سعيد أعراب، وله ترجمة في التشوف رقم 6، ص 92 تحقيق التوفيق.

(17) ترجمة ابن خلوف في الغنية للقاضي عياض رقم 157 ص 154 تحقيق ماهر زهير.
- ابن الأبار: المعجم رقم 187 ص 214.

فجاءها القاضي مستعطفاً، وظل على بابها أياماً باع كل ما يملك لينفق منه إلى أن سمحت له بالمثول بين يديها، يقول النويري: «قالت له: تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء، وخرجت في وصفك لها عن الحد، وزعمت أن ليس في الأرض أجمل منها، وما هذه منزلة القضاء، ولا يليق بك أن تنزل نفسك في هذه المنزلة فقال ارتجالاً:

أنـت بـالـشـمس لاحـقـة وهـي بـالأرض لاصـقـة
فـمـتـى مـا مـدحـتـهـا فـهي من سـيـر طـالـقـة

فقالت له يا قاضي طلقتها منه، قال نعم ثلاثة وثلاثة وثلاثة، فضحكت حتى افتضحت، وقالت والله لا شم لها قفا أبداً، وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء[18].

وقد أنجبت زينب لزوجها يوسف ولدين الأول 464هـ/ 1071م سماه المعز بالله ويكنى بأبي بكر (؟)[19] والآخر 469هـ/ 1076م وسماه الفضل[20] وتمتع المعز بمكانة خاصة عند والده، فعملت على إقناع زوجها بتعيينه ولياً لعهده[21] متجاوزة أكبر أبنائه أبي الطاهر تميم، وولاه قيادة الجيش الذي فتح طنجة وسبتة، ونجح في القضاء على حكم أسرة سكوت البرغواطي 476 هـ/ 1083[22]

---

(18) النويري: نهاية الأرب، ص 385 تحقيق أحمد أبو ضيف.

(19) ابن عذاري: م. س. ص 23.

(20) ن. م. ص 30.

(21) ابن بسام: الذخيرة: القسم الثاني. المجلد الثاني، ص 664، تحقيق إحسان عباس.

(22) ن. م. البربر، ص 56، ابن أبي زرع: م. س. ص 144.

فعينه والده أميراً على سبتة، فقام على ولايتها خير قيام رغم صغر سنه، ورتب الأجناد، وحين عزم الأمير يوسف على الجواز إلى الأندلس لتلبية نداء أمراء الطوائف، أشرف الأمير المعز على تجهيز الأسطول الذي عبر عليه جيش المرابطين، وكان لهذا الجهد الكبير أثره على صحة الأمير الشاب ولي العهد فمرض ومات بسبتة أثناء معركة الزلاقة[23]، مما استدعى عودة الأمير يوسف بن تاشفين عقب المعركة مباشرة إلى المغرب.

ويبدو أن الأمير يوسف بن تاشفين لم يتزوج امرأة أخرى في حياة زينب، فقد ذكرت المصادر «أنها كانت أحب ما لديه، غالبة عليه، ولم يكن يصدر أمراً إلا عن رأيها، وكان يعتز بها، ويصرح في مجالسه بمكانتها وفضلها، وعندما يخلو بأقاربه وأبناء عمومته يذكر أنه إنما فتح البلاد بنصيحتها[24]، علاوة على أنها كانت شديدة الغيرة من أي امرأة تنافسها، حتى ولو كانت حرة مثلها وزوجة لأميـر من قواد زوجها.

---

(23) عن الزلاقة (انظر الحلل الموشية) ص 38 :66، ابن أبي زرع م. س. ص. ص 145 :152.

الحميري: الروض المعطار: ص 83 تحقيق: د. إحسان عباس.

(24) ابن عـذاري: م. س. ص 30، وذكـر ابن أبي زرع في روض القرطاس، ص 135 أنها توفيت 464هـ/ 1076م، وهذا يتعارض مع ابن عذاري الذي ذكر أنها ولدت ابنها الفضل 469هـ/ 1076م ص 30، وفي الإحاطة لابن الخطيب جـ 3، ص 523 ذكر أن ابن أسباط التحق بخدمتها 472هـ/ 1079م فالراجح أنها توفيت بعد هذا التاريخ بمدة وربما 474 إذ يذكر أن ابن أسباط التحق بخدمة الأمير يوسف بن تاشفين 474هـ بعد وفاة الحرة العليا زينب والله أعلم.

أما الحرة حواء زوجة الأمير سير بن أبي بكر التي أثارت غيرة الحرة زينب النفزاوية لجمالها وثقافتها الواسعة رغم صغر سنها، فهي ابنة تاشفين أخو أمير المسلمين يوسف وفي الوقت نفسه ابن عمه[25]، كما أنها ابنة عم زوجها الأمير سير الذي حظي على ثقة أمير المسلمين، وكان وزيره وأحد أبرز قادته الذين اعتمد عليهم في فتح بلاد المغرب وإسقاط دول الطوائف بالأندلس، وعينه الأمير يوسف والياً على إشبيلية بعد أن استولى عليها، ونفي المعتمد بن عباد إلى أغمات، فقام بوظيفته خير قيام، وحقق انتصارات عديدة في غزواته بالأندلس فأحبه الناس[26].

وفي عام 507هـ/ 1142م قرر أمير المسلمين علي بن يوسف مصاهرة أبناء عمه الأمير سير وحواء، فخطب ابنتهما فاطمة، وأقيمت الاحتفالات في إشبيلية ونواحيها بمناسبة زفافها إلى أمير المسلمين، يقول ابن عذاري «فلم يعهد مثل ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجم الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو»[27] وبعد انتهاء مراسيم الزفاف يخرج الأمير سير على رأس المودعين للعروس وأمها التي ستصحبها إلى مراكش، وفي عودته قبل وصوله إلى مشارف إشبيلية بقليل عند مكان يعرف بأغرنات يشعر

---

(25) كان تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه لأنه لما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه عليه.
ابن عذاري: م. س. ص 56.

(26) انظر الحلل الموشية من ص 24، 72.
ابن عذاري م. س. ص. ص 48، 56، 57، 105، 118، 121، 122، 123، 128.

(27) ن. م. ص 56.

فجأة بمغص يتزايد عليه ويقضي نحبه بعد ساعات قليلة عند مطلع الفجر[28].

وتقطع حواء رحلتها غير مصدقة ما حل بزوجها الذي ودعها وتركها من ساعات قليلة سعيداً معافى، وتتبع جنازته التي شيعها أهل إشبيلية، وبعد دفن زوجها ترفض العودة إلى دار الإمارة التي شهدت سعادتها وتقسم عند قبره بأن تحرر عبيدها وتصوم عامان إن هي عادت لها[29]، وترحل إلى مراكش.

وموت الأمير سير بهذا الشكل يدعو للريبة والشك، فهل كانت وفاته طبيعية نتيجة حالة مرضية مفاجئة؟ أم وضع له السم فتسبب في المغص الذي قضى عليه؟، ومن هو صاحب المصلحة في وفاة أمير إشبيلية، ومحاولة عرقلة هذا الزواج الذي يبدو أنه سيشكل خطراً على وضعية شخص ما مقرباً من أمير المسلمين؟ أو أن هناك شخصاً خوف أمير المسلمين من الأمير سير وطول حكمه لإشبيلية الذي استمر 23 عاماً (484 -507هـ/ 1091 -1113م) واحتمال استقلاله بها؟ فعمل علي بن يوسف على التخلص منه! لكن هذا الاحتمال مستبعد لطبيعة الأمير علي المسالمة، ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا لجوءه إلى القتل لتصفية خصومه، فإذا كان يريد التخلص من الأمير سير لعزله، وطلب إشخاصه إليه كما فعل مع القائد العظيم مزدلي[30] أو تعيينه في ولاية أخرى في المغرب أو الأندلس أو حتى تعيينه في

---

(28) ن. م. والصفحة.

(29) ابن رشد: الفتاوى، جـ 2، مسألة 395، ص. ص 1223، 1224.

(30) ابن عذاري: م. س ص 56.

بلاطه ليكون قريباً منه وتحت مراقبته، كما أن الأمير سير لم يثبت عدم إخلاصه، وكان منصرفاً للجهاد جل وقته، ولو كان في نيته الاستقلال لاستقل عقب وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ورفض بيعة الأمير علي[31].

إذاً فهناك شخص أزعجه ذلك الزواج الذي سيزيد من الرابطة بين أمير المسلمين علي وأبناء عمه سير وحواء، وربما انعكس ذلك على ولاية العهد إذا ما رزقت الحرة فاطمة ولداً، وما عرف عن أمها الحرة حواء بأنها «كانت ذات نباهة وخطر» كما أن إخوتها محمد وأبي بكر ويحيى من أبرز قواد علي بن يوسف في الأندلس[32].

•

المصادر تذكر أن أمير المسلمين علي تزوج في سن مبكرة كعادة المرابطين من إحدى قريباته، وصار أباً في السادسة عشر من عمره عندما أنجب منها ولده البكر أبي بكر[33]، وبعد مدة رزق من جاريته الرومية ضوء الصباح بابنه الثاني تاشفين[34] وينجب ابنه سير من جارية رومية فائقة الجمال سماها قمر، وهي التي حظيت عنده وملكت عليه أمره[35]، خصوصاً وأن زوجته الأولى كانت صغيرة السن ولم يكن لها تأثير عليه لأنه تزوجها في

---

(31) ن. م. ص 48.

(32) الأعمى التطيلي: الديوان ص 18.

(33) ابن عذاري: م. س. قسم الموحدين ط 1985، ص 30، جـ 4، ص 101.

(34) ابن أبي زرع: م. س. ص 165.

(35) ابن القطان: نظم الجمان، ص 245.

سن مبكرة، كما أن الجارية ضوء الصباح فد فقدت مكانتها على ما يبدو بوصول قمر.

استطاعت قمر بذكائها وجمالها أن تسيطر على قلب الأمير علي، وتبعد أي منافسة لها، ولو أدى الأمر إلى قتلها، فحين أحست بأن صاحبتها الثريا حاولت استمالة قلب أمير المسلمين الذي أبدى ميلاً نحوها دست لها السم البطيء الذي سبب لها إسهالاً حاداً وآلاماً مبرحة وأدى إلى انسلاخ الطبقة الداخلية لأمعائها، وأودى بحياتها بعد أكثر من أربعين يوماً من المعاناة، وحيرة الأطباء في علاجها، يقول الطبيب أبو مروان بن زهر في كتابه «التيسير» فبعد لأي تيقنت أن قمر حظيته الأعز عنده من صواحبها سمتها، فلم يكن فيها حيلة، وماتت من علتها تلك[36].

وكانت الحرة حواء أرملة الأمير سير قد استعادت نشاطها، ومجالسها الأدبية التي تشارك وتحاضر فيها، وكان يحضرها الفيلسوف مالك بن وهيب والكاتب الأديب ابن القصيرة والشاعر ابن المرخي، وغيرهم من الكتاب والشعراء[37]، وتألقت الأرملة الجميلة ذات النباهة والخطر من جديد، لكنها بعد فترة تزوج من الأمير أبي الطاهر تميم شقيق أمير المسلمين بعد وفاة زوجته الحرة مريم بنت تيفلويت[38]، ويعين الأمير تميم والياً على إشبيلية، وتضطر حواء لصحبة زوجها وترك مراكش على مضض، وهناك ترفض سكنى دار الإمارة متعللة بالقسم الذي أقسمته عند قبر زوجها

---

(36) ابن زهر: التيسير، ص 250.

(37) ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 57.

(38) ابن خفاجة: الديوان، ص 96.

الأول، فيستشير الأمير تميم قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد فيفتي بأنه لا شيء عليها في قسمها[39].

لكن حواء لا تستكين لهذه الفتوى وتحاول أن تجد وسيلة لتجبر زوجها على ترك إشبيلية والعودة إلى مراكش فتتفق مع بعض خدمها على إفساد الماء المقدم للأمير تميم، فيمرض ويعجز عن الحركة، مما يحير أطباء إشبيلية المعالجين له[40]، ولا

(39) نص الفتوى في كتاب الفتاوى لابن رشد جـ 2، مسألة رقم 395، ص. ص 1223، 1224، تقـول الرسالة وكتب إليه (أي أبي الوليد بن رشد) رضي الله عنه الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ـ أصلحه الله ـ من مدينة إشبيلية يسأله في يمين حلفت بها زوجه الحرة حواء بنت تاشفين ـ صانها الله ـ إثر موت زوجها الأول قبله ونصها من أولها إلى آخر ما فيها ـ بسم الله الرحمن الرحيم، ما تقول رضي الله عنك في امرأة توفي عنها زوجها، وكان ساكناً معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه، إذ كان أميراً فيه، فلما وضع في نعشه، وأخرج من دار الإمارة إلى قبره، خرجت تتبع نعشه، فلما فرغ من دفنه وهو على شفير قبره قال لها قائل: قومي وارجعي إلـى دارك، فقالت مجيبة له إلى أي دار تعني؟ قال لها: إلى دارك المعروفة التي خرجت منها، فقالت: ثلث مالي إلى المساكين صدقة، وصوم سنة ورقيقي أحرار لوجه الله، لا رجعت إلى تلك الدار أبداً، أين الوجوه التي كنت أعرفها فيها، وأسكنها معهم، ولما كان بعد زمان تزوجها أمير تلك البلدة الساكن في دار الإمارة، فجبرها على السكنى معه فيها، ولم يوسعها في ذلك عذراً، وقد كانت أخرجت الثلث من مالها بعد هذه اليمين لحنث آخر لزمها في يمين أخرى قبل سكنى الدار، وزال عن ملكها من كانت تملك من الرقيق في وقت اليمين المذكورة.

إفتنا في ذلك موفقاً مأجوراً مشكوراً إن شاء الله.

(40) يوضح الطبيب ابن زهر هذا الحادث في كتابه التيسير، ص 98 بأنه =

يسترد تميم صحته إلا حين عزل بعد حوالي عام من ولايته لإشبيلية[41]، ولكنه يعين والياً على غرناطة وقرطبة وكأن المقصود إبعادهما عن مراكش، ولا يعود إلى مراكش إلا في عام 520هـ/1126م عندما يعزل بناء على طلب قاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد الذي سافر خصيصاً إلى مراكش[42]، فيعينه أمير المسلمين والياً على فاس ويبدو أن حواء توفيت قبل عزله عن غرناطة بمدة.

= استدعي مع والده لمعالجة والي إشبيلية من حالة مرضية حادة في المعدة وثقل في الحركة لم يعرف سببها، فأعطوه علاجاً، وعندما زاراه في اليوم الثاني وجداه على حاله، فأمر أبو العلاء ابنه مروان بملازمة الأمير تميم والإقامة معه لملاحظة حاله التي كانت تشتد وتقل، وبالمصادفة اكتشف أبو مروان أن بعض القائمين على خدمة الأمير يضعون في الماء الخاص به مسحوق لحم فاسد جفف، فطالما ذلك الماء الفاسد في معدته وما حولها تصعد منه أبخرة سوء إلى دماغه، فكان يتوسوس وتصيبه الآلام، ويضيف ابن زهر قائلاً: «فلم أتمالك أن صحت، وكيف يبرأ وأنتم تسقونه ما فيه هلاكه، ونصحني أحد عبيده فلم أجد معيناً من نفسي على السكوت، وتابعت القول فظهر لي الغضب من زوجته حواء ومن خوادمها، وأعقب ذلك سعياً وخزياً لي، فلم يصرفني شيء من ذلك عن قول الحق، وعزم علي بعض أصحابي في السكوت والعودة إلى حظوتي فرأيت أن ذلك ضرب من التلبيس فلم أجب إليه.

(41) تولى الأمير أبو الطاهر تميم إشبيلية في جمادى الثانية عام 516هـ وعزل عنها في ذي الحجة 517هـ فكانت ولايته إلى أن عزل سنة واحدة وأربعة شهور.

ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 106.

(42) سافر قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد إلى مراكش بطلب من أمير المسلمين علي بن يوسف إخراج النصارى المعاهدين عن الأندلس =

في هذه الفترة كانت قمر حظية أمير المسلمين علي قد نجحت في إقناعه بتولية العهد لابنها الأمير سير، ففي رجب من عام 522هـ/ 1128م استدعي أهل الحل والعقد من الفقهاء والقضاة، وجمع لذلك بني عمه، وأخويه الأمير تميم كبيره، وأخاه إبراهيم صغيره المشهور بابن تاعيشت[43]، لكن الأمير أبي بكر لم يرض عن بيعة أخيه سير، وأعلن تذمره وضيقه من تعيينه ولياً للعهد، إذ كان يرى أنه أحق بهذا الأمر منه، فهو ابن علي البكر من أول زواج له، وأمه حرة لمتونية، لكن ذلك لم يشفع له، فعزله أبوه عن إشبيلية ونفاه إلى الصحراء[44]، وأرسل ابنه الآخر الأمير تاشفين والياً على الأندلس[45].

نجح الأمير تاشفين بن علي في ولايته للأندلس، وكان موفقاً في كل غزواته فأحبه الناس، وتملك نفوس الرعية بالعدل وقلوب الجند بالإنصاف، فبعد صيته، وشاع ذكره[46] في الوقت الذي كان الأمير سير يميل للدعة واللهو، وتوالت عليه الهزائم من جيش الموحدين[47]، فامتلأ هو وأمه قمر حسداً وغيرة، وخشيا تحول

= بسبب إعانتهم لابن ردمير، وعزل أخيه الأمير أبي الطاهر تميم عن الأندلس وتقديم غيره.

الحلل الموشية، ص 98، ابن عذاري: م. س. ص 73.

(43) ابن القطان: م. س. ص 104.

(44) ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص 79.

(45) ن. م. ص 80، الحلل الموشية، ص 121، ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص. ص 448، 455.

(46) ابن عذاري: م. س. ص 80، الحلل الموشية: ص. 121، ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص. ص 448، 455.

(47) ابن القطان: م. س. ص. ص 225 -231.

شيوخ المرابطين[48] عن بيعته، فخوفا والده، وأوغرا صدره على تاشفين، خشية تغلبه على ابنها الأمير سير، واستقلاله بالأندلس، فأمر الأمير علي بن يوسف بعزل تاشفين ووصوله إلى مراكش، فوصلها في أواسط سنة 531هـ / 1136م وهو في أوج انتصاراته، وحاجة الجبهة الأندلسية الشديدة له[49]، فالتحق بخدمة ولي العهد، وصار يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه[50].

ولم يكن الأمير سير أهلاً لمنصبه، ولم يكن جديراً بولاية العهد فكان يصحب أهل الفكاهة واللهو[51]. ولم يتورع عن اقتحام دار أخيه الأمير عمر ليلاً يريد زوجته، فضربه عمر بسيفه فجرح جراحة عجلت بوفاته، فجزع عليه أبواه، إذ كان الأمير

---

(48) قال أبو مروان الوراق في المقباس: «فكبر ذلك على أخيه سير ولي عهد أبيه، وفاوض أباه في ذلك وقال له: إن الأمر الذي أهلتني إليه لا يحسن مع تاشفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء، وغطى على اسمي وأمال إليه أهل المملكة، فليس لي معه اسم ولا ذكر، فأرضاه بأن عزله عن الأندلس. (انظر ابن الخطيب: م. س. جـ 1، ص 455).

(49) انظر عن حروبه في الأندلس ابن عذاري: م. س. جـ 4، ص. ص 80، 82، 85، 88، 90، 94، 96.

ابن القطان: م. س. ص. ص 182، 198، 201 ، 215، 227.

ابن الخطيب: م. س. جـ 1 تحقيق عنان ص. ص 448، 455.

الحلل الموشية ص. ص 122، 130.

(50) ابن عذاري: م. س. ص 97، ابن الخطيب: م. س. ص 455.

(51) يقول ابن زهر في كتابه التيسير ص 195 عن سير «وقد كنت كثيراً محنت به فإنه كثيراً ما كانت البلايا وضروب الشر السموم تتعاهده وتتوالاه».

علي بن يوسف مفتوناً به، شديد الإيثار له ولأمه قمر[52].

حاولت قمر بعد وفاة ابنها الأمير سير أن تحول بين تاشفين وولاية العهد، وأشارت على الأمير علي بأن يعهد إلى ابنه الصغير إسحق، وكان رؤوماً لها، تولت تربيته عند هلاك أمه وتبنته، لكن الأمير علي تردد بسبب صغر سن إسحق إذ كان في الخامسة من عمره[53] ومع ذلك حاول إرضاءها بقوله «ولكني أجمع الناس في المسجد الجامع من أهل مراكش خاصة وعامة، وأخبرهم في ذلك، فإن صرفوا الخيار إليه فعلت ما أشرت إليه[54]. فلما جمع الناس في المسجد الجامع وعرض عليهم الأمر قالوا في صوت واحد تاشفين» فلم توسعه السياسة مخالفتهم فعقد له الولاية بعهده، ووصلت البيعات في كل جهات المملكة مؤرخة في رجب 534هـ/ 1139م[55].

لكن قمر لم تهدأ، وأعلنتها حرباً على تاشفين، واستغلت عدم توفيقه في حروبه مع الموحدين، التي ربما كانت لها يد فيها[56] وجعلت والده يتشاءم منه وحرضته على خلعه من ولاية العهد وصرف عهده إلى ربيبها إسحق، وكادت تنجح في مسعاها، يقول

---

(52) ابن القطان: م. س. ص 245، ابن عذاري: م. س. ص 97، ابن الخطيب: م. س. ص 455.

(53) ذكر ابن عذاري في الجزء الموحدي، ص 28 أن إسحق كان عمره 16 عاماً عندما سقطت مراكش من يد الموحدين آخر سنة 541هـ.

(54) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 98.

(55) ن. م.

(56) انظر ما ذكره ابن القطان عن الذي وصل مدداً لتاشفين من مراكش صفحة 242.

أبو مروان الوراق في كتابه المقباس عن تاشفين «فتشاءم به وعزم على خلعه، وصرف عهده إلى ولده الأصغر إسحق، ووجه إلى عامله على إشبيلية إنجمار[57] أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه ومدبر أمره، وأخذ في العزم على ذلك إلى أن وافاه خبر أمضه وأقلقه ولم يمهله إلى أن يستتم تدبيره[58] فأمر ابنه الأمير تاشفين بسرعة التوجه إلى فاس دون عدة واستعداد حيث تجمع الموحدون بأعداد كبيرة في أول زمن الشتاء، وكان شتاء 536هـ/ 1141م[59] قاسياً توالى فيه نزول الأمطار خمسة عشر يوماً متتالية، واشتد البرد فهلك معظم جيش تاشفين برداً وجوعاً لانقطاع الطرق عنهم، حتى ألجأتهم الضرورة لحرق أوتاد أخبيتهم وخشب أبنيتهم، وكان لهذه الأخبار السيئة أثرها على الأمير علي بن يوسف، فمرض ولزم الفراش وما لبث أن مات بعد شهور قليلة في رجب 537هـ/ 1142م[60]، والأمير تاشفين ولي عهده غائباً عن مراكش، وكان الأمير علي عندما اشتدت عليه العلة أمر بإخراج ابنه الأمير أبي بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها بسبب احتجاجه على حرمانه من ولاية العهد وتدخل جارية

(57) في الإحاطة جـ 1، ص 447 أغمار وفي البيان المغرب جـ 4 ص 99.
عمر والصحيح ما أثبته وهو يحيى بن إسحق المسوفي تولى إشبيلية في ربيع الأول 529هـ/ ذي الحجة 538هـ.
ثم تولى تلمسان ودخل في دعوة الموحدين بعد مقتل تاشفين 539هـ (انظر ابن عذاري جـ 4 ص 107، الجزء الموحدي ص 30).

(58) ابن الخطيب: م. س. ص 447، ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 99.

(59) يقول ابن عذاري: «فكان آخر عهده بأبيه» القسم الموحدي ص 16.

(60) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 101.

والده قمر، ويبدو أن إبعاده عن مراكش كان بإيعاز منها حتى يخلو لها الجو، خصوصاً وولي العهد كان غائباً يقول أبو مروان الوراق «ولما يئس من نفسه أمر عند ذلك بإخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها، لأنه خاف من خوضه في أموره فأصاب أبا بكر في سفره مرض، فكان الرجال يحملونه على أعناقهم، ووصل المذكور إلى الجزيرة فسجن بها ولم تطل مدته في محبسه هذا إلى أن هلك[61].

ومما يؤكد تورط قمر هو إخفاء نبأ موت علي بن يوسف مدة ثلاث شهور[62] وأقنعت بعض شيوخ المرابطين بتقديم إسحق على مراكش نائباً عن تاشفين، خصوصاً وأنها كانت متأكدة من صعوبة عودة تاشفين السريعة فقد كان مشتبكاً مع الموحدين عند تلمسان ووهران في معارك ضارية، بالإضافة إلى تأثر جبهة المرابطين بانسحاب قبائل مسوفة وانضمامها للموحدين مما صعب الموقف لتاشفين وأضر بوحدة المرابطين[63] يقول ابن خلكان «فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن، ومعه جيش فساروا في السهل، وأقاموا على ذلك مدة، فتوفي علي بن يوسف في أثنائها في التاريخ المذكور، فقدم أصحابه ولده إسحق بن علي وجعلوه نائب أخيه على مراكش وكان صبياً»[64].

---

(61) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 101، الحلل الموشية ص 130، ابن عذاري القسم الموحدي ص. ص 16 -17.

(62) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 100.

(63) ابن عذاري القسم الموحدي ص 18.

(64) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 7 ص 126.

وعندما علم تاشفين بما حدث في مراكش استدعى ابنه إبراهيم من قرطبة حيث كان يتابع دراسته فوصل معسكره في آخر سنة 538هـ/ 1144م فولاه عهده وأرسله إلى مراكش صحبة جماعة من لمتونة فوصلها قبل وفاة تاشفين ببضعة شهور، وعندما علمت وفاته في رمضان 539هـ بويع لابنه إبراهيم غير أن إسحق نقض بيعته ودعا لنفسه فوقع الخلاف والتدابر بينهما إلى انقطاع دولتهم بدخول الموحدين إلى مراكش في شوال 541هـ/ 1157م فقبض على جميع أبناء علي بن يوسف وغيره من أمراء المرابطين وقتلوا عن آخرهم وسبيت نساءهم ووزعن بين الموحدين، ولم يعرف مصير قمر التي تسببت بأنانيتها في إضعاف الدولة والتأثير على الأمير علي بن يوسف في اتخاذ القرار السليم[65].

(65) ابن عذاري: م. س. جـ 4 ص 105، الحلل الموشية، ص 135.

المصـادر والمـرجـع

- ابن الأبار: معجم الصدفي، نشر فرانشيسكو كوديرا، مجريط 1885.
- الأعمى التطيلي: ديوانه.
- ابن بسام: الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، تحقيق د. إحسان عباس.
- الحميري: الروض المعطار، تحقيق د. إحسان عباس.
- ابن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث، تحقيق د. العبادي، الكتاني.
- ابن خفاجة: ديوانه تحقيق د. السيد مصطفى غازي، الإسكندرية 1960.
- ابن خلدون: العبر، جـ 6، بيروت 1959.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 7، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968.
- ابن رشد: الفتاوى، تحقيق د. مختار التليلي، بيروت.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس، المغرب 1973.
- ابن زهر: التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق د. ميشيل خوري، المنظمة العربية للتربية والعلوم، دمشق 1983.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1949.

ـ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، جـ 4 تحقيق د. إحسان عباس، الجزء الموحدي. تحقيق مجموعة من الأساتذة المغاربة.
ـ عياض: الغنية، تحقيق ماهر زهير بيروت 1982.
ـ المدارك، جـ 8 تحقيق سعيد أعراب وزارة الأوقاف المغربية.
ـ ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق د. محمود مكـي.
ـ مجهول: الحلل الموشية، تحقيق زكار، وزمامة.
ـ النويري: نهاية الأدب، تحقيق د. أحمد أبو ضيف.

دكالة من خلال كتاب التشوف(*)

عاش في مجتمع المغرب الأقصى خلال القرن السادس الكثير من العباد والصالحين الذين اتخذوا من الزهد والتصوف منهجاً لحياتهم، والتف حولهم الأتباع والمريدون، ينهلون من عملهم ومعرفتهم، وقد لفتت كثرتهم العلامة القسنطيني ابن قنفذ عندما كان قاضياً بدكالة سنة 769هـ فقال عنها «الأرض التي تنبت الصالحين، كما تنبت الكلأ»[1].

وهناك أمران قد يفسران هذا العدد الكبير من العباد والصالحين وانتشار التصوف في ذلك الوقت.

أولهما: التلازم بين انتشار التصوف والتباين الاقتصادي كرد فعل للحياة المترفة التي سادت هذا العصر، فكان تعبيراً عن تذمر العامة وبعض الفئات الأخرى من المجتمع، أو كرفض واقع لا يستطيعون تغييره.

والأمر الثاني محاولات الطامعين إلى السلطة والحكم بانتحال

(*) محاضرة ألقيت بمدينة آسفي «الملتقى الفكري الثالث 25 :27 مايو سنة 1990.

(1) ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 63.

النهج الصوفي أسلوباً لحياتهم، وادعاء الهداية قناعاً لعملهم السياسي خصوصاً بعد نجاح حركة المهدي بن تومرت.

وكانت الملامح البارزة لهذا التصوف هو الزهد، ومجاهدة النفس، والإكثار من العبادة والأذكار، ولم يكن تصوفاً فلسفياً يغترف من علوم الفلسفة وعلم الكلام، كما حدث بالمشرق، بل كان تصوفاً ساذجاً بسيطاً بعيداً عن التأملات الفلسفية، أو شطحات الصوفية، وقد ضم قطاعات اجتماعية مختلفة فيهم أمراء[2]، وعلماء[3]، وعامة[4]، أو بعض اللصوص الذين تابوا[5].

وامتازت هذه الفترة أيضاً بوجود عدد كبير من أقطاب التصوف مثل ابن برجان وابن العريف وابن غالب وابن حرزهم وأبي يعزى، وأبي شعيب، وأبي عبد الله أمغار، وأبي محمد صالح وغيرهم من المتصوفة الذين أصبحوا أعلاماً يقتدي بهم الأتباع والمريدون، ويتخذون من تعاليمهم المبادىء التي تأسست عليها الطرق الصوفية فيما بعد والتي تركت بصماتها واضحة في الحياة الروحية والاجتماعية في هذه المنطقة، حيث التف الكثير من أفراد المجتمع حول هؤلاء الصالحين، يعظمونهم وينزلونهم محل التقديس والتكريم، يلجأون إليهم وقت الشدة، وحين تنزل بالناس الأزمات، أو يطلبون بركتهم ودعواتهم في أوقات الجفاف، أو في شفاء الأمراض، أو يسألونهم التوسط لدى

---

(2) رقم 19، ص 123.

(3) رقم 32 ص 144، 34، ص 146.

(4) رقم 58: ص 182، 89، ص 235.

(5) رقم 53 ص 175، 82 ص 229، ص 88 ص 234.

العمال، فهم بجانب مكانتهم في نفوس طبقات الشعب المختلفة فإنهم حظوا بمنزلة رفيعة عند ولاة الأمور الذين تقربوا إليهم كسباً لودهم وامتصاصاً لغضب الشعب الملتف حولهم.

وكتاب «التشوف إلى رجال التصوف» لمؤلفه القاضي يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي والذي عرف بالزيات والمتوفى سنة 627 هـ أو 28 برجراجة يعتبر من المصادر المهمة التي لا غنى عنها لأي باحث يتلمس المعلومات النادرة لهذه المرحلة الغامضة من تاريخ المغرب وأعني بها القرن السادس الهجري أو نهاية المرابطين وبداية الموحدين، وقد نال هذا الكتاب اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين، فنشره أدولف فور سنة 1958 عندما كان أستاذاً بمعهد الأبحاث العليا المغربية، ثم نشر في طبعة ثانية بتحقيق الأستاذ أحمد التوفيق سنة 1984، وقد تفوقت هذه الطبعة على سابقتها، من حيث غنى الحواشي والتعريف بعدد كبير من الأماكن والأسماء البربرية التي غابت عن الطبعة الأولى:

ويندرج هذا الكتاب ضمن الكتب التي ألفت في أصحاب المناقب والصلحاء. ألفه صاحبه سنة 617هـ أي بعد هزيمة العقاب مما يوحي بالحالة العامة التي سادت بعد هذه القاصمة، والناس يردون الهزائم والمصائب التي تحل بهم إلى غضب الله سبحانه وعقابه على تفريط الناس في دينهم، يقول صاحب التشوف «وبالجملة فقد قل الصالحون المخلصون في هذا الأوان»[6].

---

(6) التشوف ص 40.

وقد اشتمل الكتاب على «أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء العباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب الفضل» وقد ذكر الزيات في بداية كتابه أنه اقتصر على أخبار الرجال ولم يتطرق بالشرح لعلم التصوف مؤكداً على أن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي هو «المنتهى في ذلك»[7] وجعل من شرط كتابه عدم التعرض للأحياء من الصالحين، وذكر على سبيل المثال الشيخ الصالح الصوفي أبي محمد صالح بن ينصارن الدكالي ثم الماجري نزيل رباط آسفي والذي قال عنه «وهو إلى الآن لا يفتر عن الاجتهاد والمحافظة على المواصلة والأوراد»[8].

وقد احتوى الكتاب على 277 ترجمة منها 99 ترجمة في النصف الأول من القرن السادس، 161 ترجمة في النصف الثاني منه، وقد حظيت دكالة وحدها بـ 55 ترجمة وهذا ليس بالعدد القليل، مع ملاحظة أن هناك سبعة تراجم بعيدة عن القرن السادس. كما يلاحظ ازدياد عدد المتصوفة في النصف الثاني للقرن السادس الهجري أي في عهد الموحدين بما يقارب الضعف.

وقد وردت دكالة في كتاب التشوف بمعنى القبائل التي تمتد مضاربها من نهر أم الربيع شمالاً إلى نهر تانسيفت جنوباً، أو ترد بمعنى الأرض أو كليهما. ومضارب دكالة لم تكن ثابتة إذ كانت تنحسر وتنسحب جنوب أم الربيع بسبب ضغط القبائل الشمالية

---

(7) التشوف ص 36.

(8) نفسه ص 41.

خصوصاً برغواطة، وقبائل دكالة تضم قبائل صنهاجية وأخرى مصمودية[9].

أما معنى كلمة دكالة فقد ذهب ماسينون في كتابه Le Maroc au début du 16 é siècle, P. 201 إلى أن كلمة دكالة معناها المجتمعون بينما اجتهد الأستاذ أحمد التوفيق إلى تفسير أوضح وتعريف بالاسم فذكر أن دكالة تعني الجماعة ايدوكَالْنْ والكلمة من شقين ادّو بمعني تحت أو أسفل أو إدْ بمعنى أهل. والشق الثاني من الكلمة اكًالْنْ بمعنى الأراضي أو الأطيان إذ أنها تشبه أو تسامت في المعنى فرقة مجاورة بحوز مراكش كانت تسمى إدْرْكالْنْ الأراضي أو الأطيان وإدْرَا معناه عميق لمن ينظر من أعلى، ومنها دْرا أي بلاد درعة التي يشرف عليها سكان الأطلس في الجهة المعاكسة أي الجنوبية بينما ينظرون إلى دكالة إذا نظروا نحو الشمال[10].

وقد تؤول التسمية على أنها من تيذْكلت أي راحة اليد التي يشبه بها البسيط، وهي مشهورة كاسم مكان بالصحراء، وقد تكون مرادفة لتامسنا التي تطلق على السهل المجاور، وربما كانت دكالة بمعنى الأصحاب من كلمة امْدُكال التي ذهب إليها ماسينون[11].

ولكننا نجد في مخطوط بهجة الناظرين أن منطقة أم الربيع

---

(9) انظر رسالة دبلوم مقدمة من الأستاذ أحمد بوشرب عن دكالة في القرن السادس عشر ـ كلية آداب ـ الرباط.

(10) الزيات: كتاب التشوف تحقـ. أحمد التوفيق هامش 96 ص 114.

(11) ن. م.

كانت تسكنها قبائل جدالة الصنهاجية، فعندما يتحدث مؤلفه عن هجرة إسماعيل أمغار مع أخويه أبي زكريا، وأبي يعقوب من المدينة المنورة إلى المغرب في القرن الرابع الهجري، يذكر أن إسماعيل استوطن موضع بساحل البحر وهو الذي يسمى برباط عين الفطر والذي كان ملكاً لقبيلة جدالة وهم رؤساء صنهاجة وأعيانهم فلاحظوا وجود ذلك العابد بين أظهرهم فأعلموا بذلك قائدهم وزعيمهم عبد العزيز بن بطار، وأخبروه بما عليه الشريف من الزهد والعبادة والورع، وألفة الحيوان المتوحش له، مما أعجب ابن بطار فزوجه من ابنته، وكان من نتيجة هذه المصاهرة أن أصبحت صنهاجة أزمور يعرفون أحياناً بالشرفاء الصنهاجيين[12]. فمن المحتمل أن تكون جدالة حرفت إلى دكالة أو العكس، وإن كان هذا الاحتمال يعوزه البحث والدليل.

ومن خلال كتاب التشوف نتعرف على عدد من القرى والمداشر وهي المحاسبين[13]، تافرْنُت[14]، يَلَيْسْكَاوْنَ[15]، أبي سكة[16] اسْكَاطَايْ[17]، تاسُوفِيطْتْ[18]، سُرْنو[19]، تَايْدَافالت[20]، يمُونْمْن[21]، أنوميرْغنْ[22]، بني سيكتي[23]، تَاتُورِيْتْ[24]،

(12) محمد بن عبد العظيم: بهجة الناظرين مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1501 و4.

(13) التشوف رقم 23 ص 131.

(14) ن. م. 30 ص 141.

(15) ن. م. 37 ص 181.

(16) ن. م. 88 ص 234.

(17) ن. م. 111 ص 261.

(18) ن. م. 129، ص 286.

(19) ن. م. 161 ص 319.

(20) ن. م. 209 ص 387.

(21) ن. م. 219 ص 396.

(22) ن. م. 562 ص 437.

(23) ن. م. 266 ص 438.

(24) ن. م. 111 ص 264.

وُرْتُــوَصْفْ[25]، إيغْــوْرْ[26]، وَاوْزْجَــارْتْ[27]، وَازْكِيــك[28]، تاكْدُورْتْ[29]، تِيْمغِمينْ[30] إيسِينْ أو إيسْان[31]، تِبصْرْصَام[32]، إيمِيطِر[33]، مليجة[34]، أدَّار[35]، تالَغْتْ[36]، تيطنفطر[37].

كما ذكر الزيات في كتابه التشوف أسماء عدد من القبائل التي تسكن دكالة أو قبائل مجموعة دكالة، وهي مشنتزاية[38]، بني دغوغ[39]، بني سمائل[40]، بني سيكتي[41]، رجراجة[42].

ومن خلال تراجم التشوف نتعرف على ما كانت تتمتع به دكالة من غنى وازدهار فلاحي واقتصادي، ونمو بشري ملحوظ، فكانت تكثر بها الجنات والمراعي، وكانت تعتمد على الآبار في مواردها المائية، وبلغت أزواج حراثها عشرة آلاف، وبها قطعان الماشية والأغنام والإبل، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن قنفذ من أن أحد أصحابه الدكاليين الراغبين في الدعاء اشترى وحده لجماعة من المتصوفة بثلاثين ديناراً ذهباً عنباً من جنة رجل، ولم يكفهم لكثرتهم، وكانت قيمة قفة العنب في ذلك الوقت درهماً[43]،

---

(25) ن. م. 244 ص 419.

(26) ن. م. 61 ص 185.

(27) ن. م. 62 ص 189.

(28) ن. م. 61 ص 185.

(29) ن. م. 239 ص 414.

(30) ن. م. 230 ص 408.

(31) ن. م. 238 ص 414.

(32) ن. م. 245 ص 420.

(33) ن. م. 14 ص 113.

(34) ن. م. 20 ص 125.

(35) ن. م. 180 ص 350.

(36) ن. م. 3 ص 86.

(37) ن. م. 75 ص 209.

(38) ص. ص 130، 131، 132.

(39) ص. ص 241، 261، 402، 431.

(40) ص. ص 264، 431.

(41) ص. ص 314، 438.

(42) ص. ص 86، 113، 237، 243، 350، 356.

(43) م. س. ص. ص 71.

وكان هناك عدد من المتصوفة الأثرياء الذين حبسوا الرباع والضياع على إخوانهم المريدين. فقد ذُكر أن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن حبس في الله عز وجل ثلاثين موضعاً بين أراضي الحرث وجنات من أعناب ومحلات زرع وولجات على ضفة البحر حتى أنه إذا سمع أن هناك أرضاً ابتكرت غلتها قال هي حبس في سبيل الله، زيادة على ما يصرفه من بنيان المساجد وبنيان القناطر وتسهيل الطرقات والإكثار من الصدقات وفك العاني وغير ذلك من المصالح[44].

كما كانت ترسل الفتوح إلى المتصوفة ويستضيفون الواصلين لزيارتهم والتبرك بهم[45].

وازدهرت بدكالة الحياة العلمية فمعظم الذين ترجم لهم صاحب التشوف من أهل العلم والفضل، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب أنس الفقير من أنه كان بها خمسة وعشرين مدرساً ويقول «ولقيت هناك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم»[46] بل لقد ذكر الزيات في تشوفه أن بعضهم كان يتعاطى الكيمياء[47].

وكانت لهؤلاء الصلحاء وأولياء الله مواسم معينة يجتمعون فيها، ويأتي إليها المريدون من أنحاء المغرب، وكان من أهمها الذي يبدأ في ربيع الأول يجتمعون فيه على ساحل البحر المحيط

---

(44) مخطوطة بهجة الناظرين.

(45) التشوف رقم 77 ص 122.

(46) ابن قنفذ: م. س. ص 71.

(47) التشوف رقم 96، 243.

جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر[48]، وكان التجمع الكبير الثاني والذي يضاهيه، تجمع المتصوفة في رمضان في رباط شاكر فقد ذكر صاحب التشوف في إحدى تراجمه أنه اجتمع فيه ألف امرأة من الأولياء[49]، فإذا كان الأولياء من النساء ألف فما يكون عدد الرجال؟.

وكانت هذه المواسم موضع رعاية الأهالي، وأولي الأمر فيذكر صاحب بهجة الناظرين أن الأمير علي بن يوسف أرسل في ربيع سنة 527هـ إلى شيخ المتصوفة في ذلك الوقت أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار، يستوهبه الدعاء وأن يخصه بحظ من الابتهالات[50].

وكانت هذه المواسم التي تستمر شهوراً يفد عليها الناس من أنحاء المغرب، ويردها أصحاب الحاجات والعلل المزمنة طلباً للبركة وقضاء الحاجات، والشفاء من الأمراض، وكانت تنعقد في هذه المناطق الأسواق، وما يلزم هذه المواسم، فكانت قبائل دكالة تنتعش اقتصادياً من هذه المناسبات.

ومن الملاحظ أن علاقة دكالة كانت طيبة بالمرابطين، خصوصاً صنهاجة أزمور التي كانت تربطهم بهم صلة النسب والمصاهرة، فكان أمير المسلمين علي بن يوسف دائم الود لها يستشير شيخها الصالح أبي عبد الله صهر أمغار شيخ الولي الصالح أبي شعيب أيوب الدكالي في أمور الدولة، فعندما جاز قاضي الجماعة أبي

---

(48) ابن قنفذ: م. س. ص 71.

(49) التشوف: رقم 160، ص 316، ورقم 207 ص 385.

(50) ابن عبد العظيم: م. س.

الوليد بن رشد الجد إلى مراكش سنة 520هـ نصح الأمير علي بن يوسف ببناء السور حول مراكش لحمايتها من هجمات ابن تومرت وأتباعه، ووجده متردداً في قبول فتواه طلب منه أن يستشير الولي الصالح أبي عبد الله لما يعلمه من مكانته عنده، فاستجاب الأمير علي بن يوسف وأرسل إلى الولي الصالح ملتمساً منه المشورة، وصالح الدعاء، فأجابه مؤيداً رأي القاضي ابن رشد في ضرورة بناء السور لحماية البلاد، وأرفق رسالته بقدر من ماله الخاص ليجعله في صندوق إنفاق البناء مساهمة منه ونصحه بإسناد هذا العمل إلى ذوي الخبرة والأمانة والدين[51]، وسور مراكش كلف المرابطين سبعين ألف دينار[52]. وكان الأمير علي بن يوسف أو ابنه تاشفين دائمي الاتصال بالصالحين يلتمسان دعاءهم ونصحهم، ويرسلا لهم الصدقات لتوزيعها عن طريقهم[53]. يقول في الرسالة «من أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين، إلى أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار وليه في الله أكرمك الله وإيانا بالتقوى، ويسرك للعلم بما يوافق رضاه من حضرة مراكش حرسها الله عقب ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وقد علمنا ما أنت عليه من الخير والدين، والجد في أحوالك على النهج الصالح المستبين فاعتقدناك في الأولياء ورتبناك في أهل الذكاء وخاطبناك نادبين لك إلى اختصاصنا

---

(51) ابن عبد العظيم: م. س.

(52) عن حضور ابن رشد وفتواه ببناء سور مراكش انظر الحلل الموشية ص 98.

ابن عذاري جـ 4، المرابطي ص 72.

(53) التشوف رقم 37، ص 152، رقم 26 ص 137.

بخالص الدعاء واقسم لنا في ذلك حظاً من ابتهالك في الأوقات المرجوة واعتمد فيه رسم المواصفة والصَّفَا، والله يجعلنا ممن أُلهم ما يرضاه، ويستعملنا فيما يوجب زلفاه ورحماه، بقدرته لا إله سواه، وتبلغ سلاماً جزيلاً كثيراً لأقاربك وأهل بيتك الشرفاء الفضلاء ورحمة الله وبركاته».

ويبدو أن بعض قبائل دكالة كانت تتهرب من دفع الضرائب محتمية بهؤلاء الصالحين، فتضطر الحكومة إلى إرسال عمالها لجبايتها، فيطلبوا من الصالحين الدعاء على العامل ليتخلصوا منه ومن الضرائب[54]، وأحياناً يوقعون بين العامل والولي الصالح حتى يُضطر الولي إلى الدعاء على العامل، وبذلك يتخلصوا من العامل والمجابي، يذكر صاحب التشوف في ترجمة تُنْفِيت اليِرْصبِحي أنه ولى بعض عمال علي بن يوسف على إخوة تُنْفِيت، فخافوا من جوره عليهم وأرادوا أن يحرضوا عليه الشيخ ليدعو لهم عليه، فلما وصلهم العامل من مراكش جاؤوا إليه، وقالوا له: إن هذا الشيخ العابد قال فيك كذا وكذا، فبعث إليه العامل وقال له: يا شيخ مالي ولك، إنك تقول إني أطالب الناس بما لا يجب عليهم، وأغلظ له في القول، وكان الشيخ بريئاً مما نسب إليه قومه، وقصدوا به دعاءه على العامل فغضب الشيخ وقال له: مالك إلي! صرفك الله عنا بصارف من قدرته! ثم تحول عنه إلى داره، فجاء كتاب السلطان إلى العامل بالعزلة، فلم يؤدوا في ذلك العام شيئاً[55].

---

(54) ن. م. رقم 22 ص 131.

(55) التشوف رقم 35 رقم 151.

واستمرت دكالة على ولائها للمرابطين، فحاولت أن تمد مراكش بالمواد الغذائية أثناء حصارها[56]. ولذلك حذرت قبائل تسيغرت الخليفة عبد المؤمن بأن أرسلت له سنبلة وقالوا له: بادر زرع دكالة لا يدخل مراكش فلا تأخذها أبداً[57].

كما كان هناك عدد كبير من دكالة يدافعون عن المدينة المحاصرة جنباً إلى جنب مع المرابطين، وبعد سقوط مراكش في أيدي الموحدين قبض على ألف من دكالة داخل المدينة وأراد عبد المؤمن أن يستألف دكالة فعفي عنهم[58].

ومع ذلك لم تخضع دكالة للموحدين وعظم خطرها خصوصاً بعدما التفت حول الأمير المرابطي يحيى الصحراوي سنة 548هـ، وصاروا يغيرون على أعمال مراكش، فجهز لهم عبد المؤمن جيشاً كبيراً من الرجالة والفرسان والرماة لتأديبهم، فتحصنت دكالة في مكان كثير الحجر والحزونة وأقاموا الكمائن غير أن عبد المؤمن سلك طريقاً غير الذي كمنوا فيه، وهاجمهم فارتج عليهم وانحازت دكالة إلى الساحل في نحو عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل وألجأهم السيف إلى البحر فقتل أكثرهم في الماء وأخذت إبلهم وغنمهم وأموالهم وسبى أولادهم وانتهى البيع فيهم إلى أن بيعت المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم[59].

(56) ن. م. رقم 34، ص 148.

(57) البيدق: أخبار المهدي ص 63.

(58) ن. م. ص 65.

(59) ص 69، ابن عذاري: البيان الموحدي ص 37، الحلل الموشية ص 147، النويري نهاية الأرب تحقـ د. مصطفى ضيف ص 412، ابن الأثير جـ 10، ص 985.

ولكن دكالة لم تستكن بعد هذه الموقعة إذ خرج يدر الدكالي الذي التف حوله المتصوفة الذين سموا أصحاب الركوات غير أن الموحدين قضوا عليه وقتل معه عدد كبير من أصحابه[60].

وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين أن الأمر سيخرج من أيديهم بعدما فقدوا السيطرة على قبائل المغرب، خصوصاً تامسنا ودكالة الغنية ولذلك سارعوا بسحق هذه الثورات، ونجحوا فعلاً في القضاء على الخارجين عليهم، وأرغمت القبائل على العودة للخضوع لهم بعدما تعرضوا لمذبحة دموية رهيبة وصف تفاصيلها البيدق بما أسماه بالاعتراف والتي راح ضحيتها الآلاف من هذه القبائل، والذين وصفهم الموحدون «بأهل التخليط المعاندين» وكان ضحايا دكالة في هذا الاعتراف 600 قتيل ويعقب البيدق «وكان بهم شفيقاً»[61].

وقد حاول الموحدون بعد هذه الضربات لدكالة التقرب من متصوفتها خصوصاً الذين كانت تربطهم علاقة ودية بالمرابطين، فعندما استشفع الولي الصالح أبي شعيب الدكالي عند الخليفة عبد المؤمن في إطلاق سراح نساء الأمير علي بن يوسف ونساء أولاده استجاب لطلبه[62].

وحاولوا استثمار هذا التيار الصوفي الذي استقطب العـامة فربطوا حركتهم بالغزالي مدعين تتلمذ ابن تومرت عليه من جهة، وادعاء ابن تومرت المهدية من جهة أخرى، فزاوج الموحدون بين

---

(60) البيدق: م. س. ص 72.

(61) البيدق: ن. م. ص 84.

(62) محمد بن القاسم: المعزى في أخبار أبي يعزى مخـ ص 11.

الفكر الصوفي والمهدوية وآمال العامة، فجاءت حركتهم أول مهدية سنية في الغرب الإسلامي.

وإذا كان الموحدون قد نجحوا في تقويض حكم المرابطين، إلا أنهم أخفقوا في تحقيق آمال العامة، واستمر التباين الاجتماعي، واتسعت الهوة الاقتصادية، وتعاظم نفوذ المتصوفة، وحاول الطامحون إلى الحكم استثمار الموجة الصوفية، فادعوا الهداية[63] خصوصاً في خلافة عبد المؤمن والمنصور والناصر، وهاجموا التباين الاقتصادي والحرمان الاجتماعي وانحراف الدولة الموحدية عن تعاليم ابن تومرت، ومع أن هذه المحاولات أخفقت إلا أنها أثرت في سياسة الخلفاء الموحدين فحاولوا التقرب من العامة والمتصوفة، فنجد عبد المؤمن بعد القضاء على ثورة مراكش يتودد إلى العامة ويعطيهم المال والسلاح ويحرضهم على قتل الثوار، يقول البيدق وهو شاهد عيان؟ «ثم جمع رضي الله عنه السوقة بأجمعهم صغيرهم وكبيرهم وقال لهم اليوم أعرف أن مالي إخواناً، ولا جيراناً غيركم، وأنتم أهل الأمانات بارك الله لنا فيكم، وأعطاهم السلاح سيوفاً ورماحاً ودرقاً وسكاكين وأمرهم أن يعملوا زقاقاً من إيمي نْ تكْمي حتى إلى السجن وأمر بإخراج أعداء الله من السجن عشرة من عشرة وكانوا يقتلونهم بخصائهم» وبلغ عدد القتلى بهذه الطريقة الوحشية على أيدي العامة ثلاثمائة كان من بينهم خمسة رجال من أعيان الحضرة من التجار[64].

---

(63) انظر حركة الماسي والجزيري وابن هود وغيرهم في البيدق، وابن عذاري البيان الموحدي.

(64) البيدق: م. س. ص 79.

وعندما شعر المنصور بتذمر العامة واتساع الهوة بين طبقات المجتمع حاول التقرب إليهم بمشروعاته الاجتماعية وعطاياه المالية[65]. واستقطب المتصوفة حوله، متقرباً إليهم مُكْرِماً لهم، طالباً منهم الدعاء معتبرهم جنده، و«أمر بقطع لباس الغالي من الحرير، والاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير، ومنع النساء من الطراز الحفيل، وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقصى، ثم أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين، والقبض على من شهر من المغنين، فثقف من وجد منهم بكل مكان، فغيروا هيئاتهم وتفرقوا في الأوطان، وبارت سوق القيان، وزهد كل الزهد في هذا الشأن»، و«ضمنت الكتب النافذة بذلك فصولاً في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاة بتأنيس الرعية وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم وكف أيدي الظالمين عنهم»[66].

وربما أراد المنصور ضرب نفوذ أشياخ وطلبة الموحدين غير أنه تراجع نظراً لسيطرة هذه الطبقة وعظم نفوذها، ويظهر تراجعه عندما أبطل جلوسه لمظالم العامة «بعد أن ارتاع الأعيان بخطورة ذلك المقام»[67] ثم قام بزيارة قبر المهدي وقبر والده وأظهر الإيحاش إليهما وأسكب عبراته عليهما، وأمر الوفود أن يسيروا من مراكش إلى زيارتهما[68]. ثم أتبع ذلك بالتضحية بالعالم

(65) ابن عذاري: م. س. ص. ص 99، 227، 228.

(66) ن. م. ص. ص 144، 172، 173.

(67) ابن عذاري: م. س. ص 173.

(68) ن. م. ص 172.

الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد فنكبه إرضاءً لطلبة الموحدين يقول ابن عذاري: «فلم يمكن للمنصور عند اتفاق الطلبة إلا المدافعة عن شريعة الإسلام والقصد لسنة الرسول عليه السلام»[69].

وأقدم الموحدون على تهجير قبائل العرب «عناصر الشر» من رياح وجشم إلى المغرب جزاء تحالفهم مع بني غانية اللمتونيين، وأنزلوا جشماً وهم الخلط وسفيان المناطق الساحلية والسهول لا سيما وادي سبو وأم الربيع ودكالة، وكانت الدولة تهدف من ورائه إلى تكوين حزام وقائي حول العاصمة مكوناً من عناصر أجنبية كان ينتظر منها الولاء، واستغلالها إذا اقتضى الأمر ضد هذه القبائل، وقد نتج عن استقرار العرب بدكالة تحولات شملت الجوانب البشرية والاقتصادية والاجتماعية[70].

وقد أشار صاحب كتاب التشوف إلى ما كانت تقوم به هذه القبائل من السلب والنهب والاعتداء على الناس وقطع الطرق على السابلة[71]، وحاول الناصر التقرب إلى قبائل دكالة في شخص صلحائها وكان على رأسهم الولي الصالح أبي عبد الخالق أمغار فكان يرسل إليه طالباً الدعاء يقول في إحدى رسائله إليه «وأبسطوا بالدعاء لنا أيدي إخوانكم وأيديكم فالله تعالى يعلم أن اعتقادنا بالدعاء فوق هذا الاعتقاد بسمر الصفاد، والبيض

---

(69) ن. م. ص 226.

(70) انظر بوشرب.

(71) التشوف، رقم 153، ص 309، 203 ص 383، 230ص 409.

الحداد، وأن دعوة منكم آثر عندنا من مائة ألف بطل ومائة ألف جواد»[72].

وكان الخلفاء الموحدين يرسلون الظهائر من حين لآخر بإعفاء بعض المتصوفة من المغارم والضرائب.

وأخيراً فهذه الدراسة المختصرة لدكالة من خلال كتاب التشوف تظهر مدى غنى هذه المنطقة ومقاومتها اعتماداً على وسائلها الذاتية وقوتها البشرية التي استطاعت أن تتحدى الموحدين فترة طويلة من حكمهم تمسكاً ببيعة المرابطين.

(72) ابن عبد العظيم: م. س.

المـراجـع والمصـادر

- د. أحمد بوشرب: دكالة في القرن السادس عشر، رسالة دبلوم بكلية الآداب - جامعة محمد الخامس - الرباط.
- البيدق: أخبار المهدي.
- التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1984.
- ابن عذاري: البيان المغرب جـ 4، تحقيق د. إحسان عباس، الجزء الموحدي.
- محمد بن عبد العظيم: بهجة الناظرين، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1501.
- مجهول: الحلل الموشية، تحقيق زكار، زمامة.
- ابن قنفذ: أنس الفقير، نشر محمد الفاسي، وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي - المغرب سنة 1965.
- هناك دراسة عن آل أمعار للدكتور محمد بنشريفة، بمجلة دعوة الحق، د. صباح إبراهيم الشيخلي بمجلة البحث العلمي، الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ بمجلة دعوة الحق.

الفهارس

فهرس الأعلام

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

الطوائف والجماعات

فهرس الأماكن

– د –

– ر –

– ز –

– س –

– ش –

– ص –

– ط –

– ع –

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 113 - 5787 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 91/1/2000/190

التنضيد: كومبيوتايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: AL-OLOÙM PRESS CO.

TYPESETTING, DESIGN, PHOTOGRAPHIC REPRODUCTION, & PRINTING PRESS

Tel · 313681, Tlx 23166 malayin
P.O.Box 1085, Int'l Line + Fax 00357 9 515440
Beirut - Lebanon

فهرس الموضوعات

NOUVELLES LUMIERES SUR L'HISTOIRE DES ALMORAVIDES

par

Ismat Abd-al-Latîf Dandach



Dar al-Gharb al-Islami

Ismat Abd-al-Latîf Dandach

NOUVELLES LUMIERES SUR L'HISTOIRE DES ALMORAVIDES



Dar al-Gharb al-Islami